الضربة القاضية

أصيل العنانى

إهـــداء

إلى والديَّ.. رحمهما الله

كان لهما الفضل فى حياتى وحياة أخوتى.. دائماً استطعت بفضلهما إنجاز وطباعة هذا العمل.

أيضاً...

إلى كل إنسان يحمل رائحة الحياة على كف الإنسانية.. يقبض على مفاهيمها خشية أن تتسرب منه عبر سراب الزمن الذى يحملها.. حين يرى بعيون ضميره إرادة التفاعل الإيجابى بين الإنسان وإنسانيته.

المؤلف

كان الرصد المسبق قد يسّر لهما التحرك فى الموعد الذى حدداّه.. حين قفز أحدهما معتلياً السور ثم سقط خلفه من الداخل.. بينما اختبأ الآخر وهو يؤمِّن تحركات صاحبه من مكان قريب!

وبمجرد أن صار بالداخل.. توارى خلف إحدى الأشجار العتيقة وهو يختلس النظر ناحية الإسطبل القريب، وخلال لحظات يسيرة بدأ يتسحب فى حذر حتى إذا ما وصل الإسطبل، فتح بابه وفك الفرس الوحيدة به ثم خرج مسرعاً وفى أثره هرعت الفرس منطلقة وهى تصهل بصوت عال ومفاجىء، ذلك الذى وصل إلى سمع الحارس القابع بالقرب من بوابة الفيلا.

أسرع يتطلع ناحية صوت الصهيل.. لمح الفرس وهى تتقافز مهرولة بين الأشجار على غير هدى.. ثمة اضطراب دفعه إلى الإمساك بالفرس والعودة بها إلى موقعها!

فى تلك الأثناء كان صاحبا الرصد طوال فترة سابقة، قد تيسر لهما التسرب خلسة حين ابتعد الحارس عن البوابة الرئيسية، بينما كانت زينات.. تلاعب ابن الوزير وهى تقذف بالكرة أمام قدميه حتى يركلها إليها بقدمه وهى تكرر ذلك، وهما مستغرقان فى الضحك.

وكان البساط الأخضر من النجيل الممتد أمام الفيلا.. فى الداخل.. أكثر من قامة رجلين يحوط كامل الفيلا بإحكام.

حيث يعكس بلونه الرمادى الضارب فى «البُنيِّة القاتمة» صلابة حجر البازلت وما تتسم به قدرة الإنسان كيفية تشكيل مواد الطبيعة وخاماتها لصالح الحياة التى أرادها الإنسان.

كان السور من حجر البازلت الصلد.. يحجب الكثير من بهاء الحديقة المحيطة بالفيلا.. غير أن بوابة الفيلا المؤطرة بنقوش تمثل زهرة اللوتس.. يتوسطُ ضلفتيها سبعان مرفوعا الذيل وهما مفتوحان فاهاً فى اتساع مخيف.. كشف عن أسنانهما القوية المدببة وهما فى حالة استنفار وتحفز أقرب إلى الهجوم.

يمتد على البوابة من جهتيها سور إضافي من قضبان الحديد بمسافة لاتزيد عن خمسة أمتار من كل جهة، حيث يمكن لعينيك رؤية مابداخل

البوابة عن قرب.

قبل أن تصل الكرة إلى قدم ابن الوزير.. كان ثمة رجلان ملثمان.. يضع أحدهما قدمه على الكرة بخفة وحذر، بينما الآخر يشرع فى إشهار السكين التى لم نصلها الذى يعكس ضوء النهار، ثم يجذب بيده الخالية.. زينات.. وهو يأمرها مهدداً أن تدخل الفيلا.. دون أدنى صعوبات أو حركة وإلا حياتها الثمن!!

لم يستغرق كل ذلك بضع دقائق حيث صارت زينات مقيدة داخل الفيلا، ومكممة بشريط لاصق يمنع صوتها عن الصراخ أو الإستغاثة.

قام الملثمان بوضع غمامة فوق عينى الطفل الذى لم يتجاوز السابعة من عمره.. حمله أحدهما بسرعة حيث كانت السيارة تنتظرهما خلف الفيلا فى شارع جانبى.. انطلقا ومعهما الطفل حتى وصلا إلى بيت متطرف بإحدى القرى النائية.. يبعد عن أقرب بيت له بمسافة تزيد عن خمسمائة متر، وهو طابق.. يظله سقف من العروق تُغطى ثلاث حجرات.. اثنتان متجاورتان بينهما مم لايزيد اتساعه عن متر ونصف.

بينما الحجرة الأخرى متطرفة بعض الشىء جهة الغرب من البيت الذى تتوسطه باحة يبدو عند طرفها الشرقى حوض أسمنتى -مربع الشكل- بعمق نصف متر.. انتصبت فوقه طلمبة يبدو أنها حديثة التركيب.. تلمح البيت عن بُعد من فوق الجسر العمومى الموصل إلى القرية عند نهاية الطريق الجنوبى من الجسر.

لايوصلك إليه غير طريق ضيق ممتد بين عدة حقول عن اليمين أو اليسار تلمس الطريق خصيصاً للمترجلين فقط، وبعده بعدة أمتار تقبع المقابر الخاصة بالآهلين.. «كفر الغَبْش» حين يخرج أهل المتوفى يصحبهم جمع غفير من أبناء ذلك الكفر أو القرى المجاورة وهم الذين سمعوا نبأ الوفاة حتى جاءوا للمشاركة بتشييع الجثمان إلى مثواه عبر ذلك الطريق المترب.. إلى المقابر وهم يتقاطرون سائرين خلف الجنازة، بينما الخاصة منهم يحملون النعش فوق الأكتاف، وقد غمرهم التأثر، وارتسمت على وجوههم الأحزان وهم يرددون بين الفينةِ والأخرى بصوت جماعي: «لا إله إلا الله.. محمد رسول الله».

ألقيا بالطفل المعصوب العينين فوق السرير المتهرىء، قام أحدهما بتثبيت إحدى رجليه بقيد مثبت بالسرير، ثم اقتربا يتهامسان لحظة وبعدها تقدم أحدهما بقطعة من الشيكولاتة وهو يقترب بها من فم الطفل قائلا:

- لاتخف.. خذ.. ستعود إلى بابا وماما.. خذ..

قال الطفل وهو يرتعد خوفاً:

- حرام عليكم.. ماليش دعوه..

ثم أخذ يبكى.. وهو يردد:

- عاوز ماما.. عاوز بابا.

قال أحد المختطفين:

- قلنا لك لاتخف.. لى حق عند أبيك.. حين آخذه سترجع بالسلامة إلى بابا.. وماما.. هه.. تحمّل.. قال ذلك وهو يربت على كتفه..

قال الطفل: عاوزين إيه من بابا.. عاوز أرجع.. مش عاوز أي حاجة منكم.. لا آكل أى حاجة ولا أشرب غير عند ماما وبابا.

قال أحدهما: اطمئن.. يا بابا. ويا حبيب ماما إن أردت العودة.. فعليك أن تكون مطيعاً لنا.. وبداية طاعتك أن تأكل هذه الشيكولاتة اللذيذة.. صح الكلام..!

قال الطفل بكلمات مختلطة بالنشيج والبكاء:

- لا ماليش نفس خالص لأي حاجة.. أنا مش شايف أي حاجة.. الدنيا ظلام.. قال ذلك وهو يحاول رفع الغطاء عن عينيه.. نظر الخاطفان إلى بعضهما.. لبس كل منهما قناعه وقال أحدهما:

- لك حرية الأكل على راحتك.. ماشى كلامك.. على الفور تقدم إلى الطفل وفك غمامة عينيه، ثم وقفا قبالته يتأملانه لحظات وهما ملثمان بينما هو يتحرك مرتعداً بنظراته الزائغة فيما حوله حتى خرجا وتركاه بمفرده!

******

بعد بضع ساعات وقبل أن تغرب شمس نفس اليوم.. أمسى نبأ اختطاف ابن الوزير هو الشغل الشاغل لكافة أجهزة الأمن، ثم انتقل إلى

وسائل الاعلام، حتى تلقفته الصحف بمانشتات ضخمة وصفحات أولى ثم تحقيقات لصفحات داخلية شبه كاملة لتفوز بكم التوزيع المرتفع.. وتفشّى الخبر على مرأى ومسمع الجماهير التي تناقلت النبأ غير المتوقع..!

كان حب الإستطلاع لدى الجماهير يتساءل بين لحظة وأخرى:

كيف تم الإختطاف؟ ولماذا اختُطف أساساً؟! ومن القادر على فعل ذلك أمام شخصية هامة يعلم الجميع مدى قدرتها وسطورتها، وما لديها من إمكانات تفوق كل إمكانات الجماهير وحيلهم؟! ثم ما مصير الطفل المخطوف؟ وكيف الوصول إليه؟ وما أهم الخطوات التى يجب اتخاذها للقبض على أولئك المجرمين الذين اختطفوه.. وعودة الطفل المخطوف سالماً إلى ذويه؟ إلى آخر تلك التساؤلات التى لاتنتهى على ألسنة كل من يصله خبر الاختطاف.

كان الموقف برمته يغلفه الضباب والعتمةَ التى لاتشى عن شىء!!

فى المساء وعقب نشرة الأخبار المعتادة.. أجرت إحدى المذيعات المعروفات حديثاً مقتضباً مع الوزير الذى ألمت به الكارثة.. كان مكفهراً ومتوتراً للغاية، ولم تزد كلماته عن فحوى:

انه ليست بينه وأى أحد عداوة أو بغضاء، أو حتى أى نوع من ديْن، فقط يود أن يعرف السبب لما حدث معه بالذات، وسيكون على استعداد لتلبية كافة مطالب المختطفين طالما كانت فى إطار المعقولية المشروعة وفى استطاعته تنفيذها.. ثم اختتم حواره وهو يوحى بالتهديد والوعيد حين أفصح بقوله:

لن يفلت مجرم بجريمته مهما كان ذكياً بارعَ التخطيط، مدعياً الفطنة أو متسلحاً بالشجاعة الحمقاء.. التى لاتركن إلى الحصافة بل هى التهور الأرعن بعينه، وسوف يكون عقابه رادعاً لا محالة، وعلى المختطفين أن يعودوا إلى صوابهم ورشدهم ويقدروا موقفهم الشائك والصعب.. لكن الأهم من كل ذلك أن يضعوا أنفسهم مكان قلب الأم الذى ينصهر ويتفتت كل لحظة، أو الأب الذى يشتعل لهفة وكمداً!!

* * * * * *

قبل الفجر بوقت يسير.. رن الهاتف.. أسرع الوزير رافعاً السماعة ملهوفاً.. جاءه نبأ رسالة واردة على الكمبيوتر فى مكتبه.. حيث تحدث إليه سكرتيره الخاص بمضمونها:

«لاداعى للجلبة أو الضوضاء.. الهدوء وعدم التهديد مطلوبان الآن.. اطمئن.. سنعاود الاتصال بكم..»

أسرع الوزير مستفسراً بدهشة:

- هل أدركتم مكان الإتصال؟!

أجاب السكرتير باقتضاب: للأسف كانت الرسالة عاجلة، ثم تمت إزالتها بواسطة المختطفين أنفسهم!

ظلت أجهزة الأمن تستمع إلى زينات وهى تروى كل تفاصيل الإختطاف بدقة وتركيز شديدين منذ فاجأها الملثمان وحتى انتهاء عملية الإختطاف.

لقد مكثت زينات زهاء خمس ساعات وهى رهن التحقيق والمساءلة حتى أصابها الإعياء مما حدا بكبير المحققين أن يفك حصارها على أن يعاود استكمال التحقيق بكل جوانبه فيما بعد.. كانت تفاصيل كل لحظات الإختطاف غير كافية لدى المحققين، كما تطرقت بعض جوانب التحقيق إلى حياة زينات منذ طفولتها مع تدرج حياتها وحتى إلتحاقها بخدمة السيد الوزير.

ولم ينس المحقق الاستعلام عن صداقاتها السابقة أو الحالية.. وأهم تفاصيل حياتها المتعلقة بإخوتها أو أقاربها.. صارت كل تلك المعلومات أمام فكر وعيون جهات التحقيق.. لم تخف زينات شيئاً سُئلت عنه، حتى أسرتها التى ذكرت عنها:

أنها أسرة متوسطة الحال.. وهى التى كانت تعيش بين أربعة من الأشقاء والشقيقات غيرها.. شقيقان وثلاث بنات.. هى حسب ترتيب الأعمار قبل الأخيرة.. كلهم متزوجون ما عداها، وأختها التى تليها مخطوبة وعلى وشك الزواج.. أما أبوها وأمها فقد صارا إلى ذمة الله، بعد أن أديا رسالتهما فى الحياة بكل أمانة وتضحية، وحسبما ذكرت أيضاً أن أهم صديقاتها اثنتان.. «سارة وهند» إحداهما تزوجت وسافرت

بصحبة زوجها إلى خارج البلاد ومازالت الرسائل متبادلة بينهما من وقت لآخر.. بينما الأخرى تبادلها الزيارات الحميمة وهما تتحدثان فيما بينهما عن أدق التفاصيل الخاصة بهما ولاتخفيان شيئاً عن بعضهما.

ولما سألها كبير المحققين عن كيفية التعرف إلى تلك الصديقتين أجابت:

- كانتا زميلتين فى العمل السابق قبل أن ألتحق بالعمل عند السيد الوزير.

- أى عمل سابق..؟

- التمريض بإحدى المستشفيات الخاصة.

- هل تجيدين التمريض؟ أقصد.. تحملين شهادة معتمدة، أو مؤهل يجيز لك ممارسة ذلك العمل؟

- أجابت فى تأكيد: معى دبلوم خاص فى التمريض، وشهادة تفيد ذلك.. ثم فتحت حقيبتها وهى تبحث عن بعض الأوراق، فبادرها على الفور:

- سنطلب كل شيء فى حينه، بل أكثر مما تتوقعين!

كان مما يحير رجال التحقيق آنذاك.. أن الوزير لم يتهم أحداً، ولم يذكر أو يتذكر عداوته لأحد، أو عداوة أحد له على الإطلاق، بل مما زاد الأمر غرابة وغموضاً أنه أشاد بأخلاق زينات وانضباطها طوال فترة عملها التى دامت أكثر من ثلاث سنوات عنده حتى لحظة الإختطاف.

* * * * * *

حين وصلت الرسالة الثانية من المختطفين، كان الجميع يضربون كفاً بكف.. الوزير المنهك معنوياً، وزوجته التى عاشت كل لحظات الهلع الممتد بلا نهاية، وكذلك المحيطون بكل أحاسيس التمنى والإنتظار، ثم التوجس المشوب بالحذر والتأمل العميقين.. كانت الرسالة الثانية على شاشة الكمبيوتر:

«نرجو استقبالك لرسائلنا مباشرة دون وسيط وبلا مراقبة - خاصة.. الجهة التى قامت بعصر زينات فى معصرتها المعروفة.. لا تفترض غباءنا..»

ثم أزيلت الرسالة بعد إرسالها بلحظات.

في حوار سريع بين الوزير المكلوم بأبنه المخطوف وكبير المحققين.. قال كبير المحققين وهو يرنو ببصره في اللاشيء ويهرش رأسه:

– أرجو ألا تقلق.. كل شيء سيكون عال العال.. المسألة مجرد وقت فقط.. الصبر خير دواء في هذه اللحظات الحرجة والمؤلمة.

قال الوزير وهو يتنهد بعمق زفير يتزاحم خارجاً من صدر يتوهج صعوداً وهبوطاً:

– ماذا أفعل حيال هؤلاء المجرمين الملاعين.. ليتني أصل إليهم.. حتماً سيقعون في غضبة القلب الذي أحرقته مؤامرتهم الدنيئة، بل والعدالة التي لاترحم أعداءها.

في تلك الأثناء لفت انتباه المحقق ذلك الطبيب وهو يتحدث على مقربة منهما ومخاطباً أحد رجال الوزير بقوله:

– الحمد لله.. السيدة حرم الوزير بخير.. ستنام عقب «الحقنة» وستتحسن حالتها، المهم أن تواظب على تناول القرص المهدئ في موعده.

بينما كان على الجانب الآخر، المختطفان وبصحبتهما فتاة لاتتعدى التاسعة عشرة من العمر وهم يحيطون بالطفل المقيدة إحدى قدميه بالسرير، والمقيدة عينيه عن الرؤيا، حيث بدأ أحد المختطفين موجهاً كلامه إلى الطفل:

– أظنك الآن ستتعامل مع التي تفهمُك.. جئناك بها حتى ترتاح إليها.. اعتبرها بديلة عن ماما مؤقتاً.. هه.. مارأيك..؟

غمغم الطفل وهو يقول في خوف وفزع:

– حرام عليكم.. الدنيا سوداء من حولي.. عاوز أخرج من هنا.. عاوز أرجع إلى ماما وبابا.

تبادل الثلاثة النظرات بينهم، ثم قال زعيمهم في تهكم ومرارة:

– حرام علينا وليس حرام على من جرّعنا الظلم قطرة قطرة حتى امتلأت نفوسنا عن آخرها.. وها نحن نعيش المتاعب بسببه أو قل بسبب الظلم!

قال الطفل والدموع تترقرق ثم تسيل من عينيه:

- ولماذا أتحمل وحدى.. «ماليش دعوه بغيرى»؟!

أسرع زعيم المختطفين يقول:

- حتى يشعر بحاجته الشديدة إلينا.. مثلما كانت حاجتنا الملحة إليه.

توقف فجأة وهو يسترجع المعاناة التى عاش لهيبها، وهى التى طوقته ولاتريد له فكاكاً.. لقد أحرقت المعاناة كل طموحاته، وقذفت به فى محرقة البطالة حتى فقأت كل عيون الآمال لديه، بعد أن حفيت قدماه وتصبب عرقه كثيراً، فكم أحمرت وجنتاه خجلاً بفعل فحيح الإذلال الذى التقاه عبر مواقف لم يألفها بلا أمل فى الوصول إلى مبتغاه، وهاهو يصل إلى اللحظة الفاصلة بين الأمل واليأس.. بين بصيص الضوء والظلمة الحالكة.. بل بين الحياة والموت، الذى ينوء به كاهله فلا يقدر عليه!

إستعرض كبير المحققين كل التقارير الواردة، كما تابع بدقة كافة التحريات الخاصة بكل ما يتصل بالمدعوة زينات، فشقيقاها اللذان يكبرانها.. الأكبر منهما يعمل بأحد الموانىء الساحلية ضمن أعمال التفريغ والشحن، وهو مستقر فى حياته مع أسرته المتواضعة.. زوجته وولديه: «رانيا وهشام» ولم يسبق له ارتكاب أية مخالفات تضعه تحت طائلة القانون، وليس له «صحيفة جنائية» حتى مثول التقرير والتحريات أمامه.

أما الشقيق الأصغر، يعمل مدرساً فى إحدى المدارس الإبتدائية وهو يبذل جهده لتغطية نفقات معيشته براتبه المحدود واشتراكه فى مجموعات الدروس بالمدرسة، بينما أختهم المتزوجة فهى تعيش مع زوجها الذى سافر إلى إحدى البلاد الشقيقة، وهو يرسل نفقات أسرته منذ ثلاث سنوات بمعدلات ثابتة، ولايأتى فى غير أجازته السنوية ثم يرجع، ولم يبق غير الأختين.. «فتحية وزينات».

أما فتحية فهى المخطوبة إلى شاب يعمل فى قطاع خاص بصحبة أحد المقاولين وهو المسئول عن كافة حسابات ذلك المقاول المعروف فى

كافة الإنشاءات التى تسند إليه، وزينات هى التى مازالت فى إنتظار ابن الحلال.

ظل كبير المحققين يستعرض وينقب فى أوضاع حياة كل منهم، عله يجد شيئاً يبعث قبساً من خيط ضوء ينير الطريق أمام الباعث على الاختطاف، لذا قرر أن يواجههم جميعاً وحتى يتثبت من كل الافتراضات أو الشكوك إلى أن ينكشف قناع الحقيقة، وسيبدأ بمن هم فى متناول يده، أما زوج أختهم المسافر فلن يعدم الوسيلة فى الوصول إليه.

من أجل ذلك سارع باستدعاء شقيقها الأكبر: «يسرى» حيث بدأ بسؤاله:

- لن أسألك سؤالاً تقليدياً عن اسمك أو عمرك أو عملك، فكل ذلك معروف لنا على وجه الدقة ولكن.. أرجو الإجابة بوضوح وصراحة.. ماذا تعرف عن إختطاف ابن الوزير؟!

صدمه السؤال المباشر، لكنه تماسك وهو يستجمع شتات نفسه محاولاً تجميع عناصر التفكير والتركيز فى بؤرة واحدة، محاولاً الخلاص من وقع السؤال:

- ابن الوزير لم أره فى حياتى، وليست لى بهم أية صلة لا فى القرابة أو التعامل، ولا أعرف شيئاً بالمرة عن اختطافه!!

- لكن أختك كانت تعمل عندهم ومازالت حتى الآن؟

- وما الضير فى ذلك.. إنه قدرها ولا أملك منعها، فكل إنسان عليه أن يسعى إلى رزقه، ولها الحرية مادامت تعمل عملاً شريفاً.

- ألم تسوّل لك النفس الواهمة مثلاً.. صفقة تصير بعدها غنياً كطموح ربما راودك؟

- أرجوك.. لاتظن بى الظنون أو الشكوك بلا دليل هكذا، بينما الحقيقة ستؤكد لك.. أننى من أشد الناس كرهاً لكل ما يأتى عن طريق الحرام.

- ماعلينا.. المهم الآن أن نعرف.. هل تجيد العمل على أجهزة الكمبيوتر؟

- ولماذا تسألنى هذا السؤال محدداً هكذا؟!

- عليك أن تجيب فقط..

- ليتنى أجيد العمل على تلك الأجهزة العصرية المتطورة.. إنها من أهم متطلبات العصر الذى يتمناه كل من يريد أن يتطور إلى الأفضل دائماً.

- أريد إجابات مقننة وواضحة.. مفهوم..

- مفهوم..!!

- من الذى وصل به التطور فى أسلوب الجريمة كى يبعث برسائله على شاشة الكمبيوتر إلى السيد الوزير؟..

- لا أعرف!!

- إذن.. من الذى تظنه! حاول أن تَتَذكر أو تخمن معى على الأقل!

- ليس عندى ما أتذكره، كما لا أعرف التخمين ولم أجرِّبه!

- يبدو أنك تتجاهل، أم تنكر ما تُخبئه نفسك.

- أعتقد أن التذكر أو التخمين أو ما شابه ذلك من بين طبيعة عملكم.

- نعلم أن أخاك الأصغر.. «شوقى» عاشق للمظاهر، ويُقال إن يده.. «فرطة حبتين».. مارأيك؟

- لكم أن تسألوه شخصياً.

ابتسم المحقق بخبث وهو يردد:

- المظهر والإسراف ومتطلبات الإنفاق و... ربما يستهوى كل ذلك نزعات الشيطان عند الإنسان حين يخلو به حتى يفتت من تماسكه.

- التماسك هو التماسك، ومن شب على الفضيلة صعب عليه أن يتركها أو يتنازل عنها بسهولة.

- مفهوم.. مفهوم.. نسيت أنه أخوك.. ستكون تحت طلبنا متى شئنا.. تذكر ذلك.. أعتقد أنه لا مانع عندك.

قال يسرى بسرعة وهو يتعجل انتهاء التحقيق ومن ثم الانصراف:

- طبعاً.. طبعاً.. لا أملك غير تنفيذ كل ما تأمروننى به.

* * * * * *

قبل ظهر اليوم التالي.. كان شوقى.. الشقيق الأصغر يقف أمام

المحقق الذى يحاول جاهداً أن يستشف منه أدنى بادرة على أمل أن يصل إلى خيط يُفضى إلى المختطفين، كما شمل التحقيق كلا من الأختين: «فهيمة» و«فتحية» وأيضاً ذلك الشاب -خطيب فتحية- حيث يعمل بصحبة أحد المقاولين، ولم يبق غير زوج فهيمة المسافر إلى إحدى البلاد الشقيقة وهو على وشك العودة خلال أيام عند حصوله على الاجازة السنوية التى أوشك ميعادُها.. من أجل ذلك فقد استعد كبير المحققين لمواجهته.

بيد أن رسالة ثالثة قد ظهرت على شاشة الكمبيوتر وهى تتضمن العبارة التالية: «لماذا التحقيق المتواصل مع زينات وغيرها.. يبدو لافائدة من تحذيركم..» وانقشعت الرسالة بمجرد تناولها.

قرر الوزير بين نفسه أن يبتعد مؤقتاً عن جهات التحقيق فلا يشركها وخاصة فيما يصل إليه من رسائل وهو تحت تأثير العاطفة التى تؤرقه، بينما زوجته الملازمة لفراشها معظم الوقت لم يشأ أحد على الإطلاق أن يخبرها شيئاً عن تلك الرسائل، حسب رغبة الوزير، وبعد مشاورات مستفيضة مع الطبيب وكبير المحققين المكلفين بمهمة كشف النقاب عن هؤلاء المجرمين فى أسرع وقت.

طلب الوزير من كبير المحققين برجاء أقرب إلى الرغبة المؤكدة أن يوقف نشاطه على الأقل ظاهرياً فيما يختص باستدعاء كل من تحوم حولهم أدنى شبهات كبادرة إيجابية لاطمئنان المجرمين مؤقتاً.

لكن كبير المحققين وتحت الرغبة الملحة للوزير أعرب عن استجابته وهو غير مقتنع بتلك الرؤية حيث استدعى بعد يومين فقط ذلك المدعو «عادل».. زوج فهيمة.. وهو العائد منذ ساعات قلائل فى إجازته السنوية، وأخذ يوجه إليه عدة تساؤلات شتى حين بدأه:

- قبل أى شىء، وحتى تطمئن إلى سلامة موقفك.. لانريد منك غير الحقيقة.. الحقيقة فقط عن بضع معلومات.. نريد أن نتأكد منها.

قال عادل مستغرباً:

- معلومات.. أية معلومات.. هل أنا متهم فى شىء؟

- لا أستطيع الإجابة بالنفى أو الإثبات الآن.. المهم صراحتك

ووضوحك هما الفيصل.

قال عادل وهو يرتعد خوفاً حتى توشك ضربات قلبه أن تخرج من صدره:

- طبعاً.. طبعاً.. بالتأكيد سأكون تحت أمرك وعند حسن ظنكم إن شاء الله.

- ماذا تعرف عن أجهزة الكمبيوتر بشكل خاص؟!

استغرب وقع السؤال ومدى ما يغلفه من ضبابية ذات مفاجأة غير متوقعة.. فقال على الفور:

- ماذا تقصد بأجهزة الكمبيوتر على وجه التحديد؟!

- كلامي واضح.. وعلى كل حال سأعيد صياغة السؤال بطريقة أخرى:

- أليست عندك خبرة فى هذا المجال؟

أجاب عادل.. وهو مازال فى دهشة:

- خبرة.. إن عملى لا غرابة فيه.. أعمل كهربائياً من عشر سنوات وربما أكثر.. كافة المنشآت الحديثة هناك -أقصد فى البلد التى أتيت منها- أقوم ضمن مجموعة الكهرباء التابعة لمؤسسة الإنشاءات بتركيب كافة الوصلات اللازمة حسب المقايسات والمواصفات المطلوبة.. هذا هو تخصصى ومجال عملى على وجه التحديد!

- أي صداقات لك.. ربما أحدهم له معرفة بتكنولوجيا الكمبيوتر مثلاً؟!

- كل إنسان وله صداقات، أما تحديد نوعيتهم لا أملكه ولا شأن لى بأعمالهم التى يزاولونها!

- لاشك أن كل صديق يجب أن يعرف الكثير عن أحوال أصدقائه وخاصة فى مجال العمل أو الأخلاق وغير ذلك.

- على كل حال ليس من بين أصدقائى خبرة فى المجال الذى تقصده.

تنهد كبير المحققين وهو يعتدل فى كرسيه ويقول:

- ألم تسمع عن قضية اختطاف ابن الوزير؟

- قرأت عنها فى الصحف ولكن -فى استغراب- لماذا تسألنى عن

هذه القضية بالذات؟!

- أنا أسألك وعليك الإجابة.. ألم تعرف من غير الصحف؟

- معروف أن الصحف هى النافذة التى تطل على أحوال المجتمع والعالم.. ولم أعرف من غيرها!

ابتسم كبير المحققين فى سخرية وقال:

- أظنك مثقفاً.. تتابع كل شىء فى حينه.. ماعلينا.. ولكن.. مارأيك فى زينات وكافة أخواتها؟

- لا أفهم ماذا تقصد!!

- ربما يكون لهم دور فى جريمة الاختطاف..

- دور.. أى دور.. ولماذا هم بالذات؟!

- حتماً ستظهر الأيام الحقيقة.. وعلى كل حال لابد أن نبدأ بالتوقعات أو التخمينات أو حتى الشكوك.. سمّه ماشئت.. وعلينا نحن رجال الأمن أن نبحث كل الاحتمالات.

- جئت من بضع ساعات فقط ولا أعلم أى شىء على الإطلاق.

- هل لديك شىء هام بخصوص هذا الموضوع بالذات، وقبل أن نسمح لك بالانصراف؟

- لا..!!

- تذكر.. ستكون تحت طلبنا متى شئنا ذلك، وستظل رهن التواجد بمقر إقامتك.. نحن نعرفه جيداً وسنتابع ذلك حتى ننهى ذلك اللغز!!

- حتماً.. سأكون تحت أمركم متى شئتم ذلك!

- طبعاً.. طبعاً.. بالتأكيد.

قال ذلك وهو يهز رأسه فى ثقة.

* * * * * *

لم يكد الوزير يطلع على الرسالة الواردة تواً، حتى راوده الأمل بعض الشىء.. كان مجمل الرسالة يقول: «لابد وأنك تتساءل عن سبب ماحدث.. ستعرف فى أقرب فرصة متاحة المهم أن نبتعد سوياً عن تدخل البوليس حتى يتيسر لك استرداد ابنك.. انتظر.. سنحدد موعد اللقاء قريباً..».

وفى لحظة منتظرة وعقب الرسالة الجديدة على الشاشة بيومين.. كان الوزير يفض مظروفاً أصفر منتفخاً وبمعرفة أحد رجال المفرقعات.. لم يجد به غير بعض أوراق مطوية من الصحف اليومية التى تُسهب فى حادث الاختطاف وهى تسرف فى عدة آراء للكثيرين، وبعض التخمينات، ثم تطوف حول بواعث وتحليلات يبعث كلها حب الاستطلاع لدى القراء.. رغبة فى كم التوزيع المنتظر.

على غير المُنتظر.. تعلقت عينا الوزير بخطاب وسط أوراق تلك الصحف.. أسرع بفض الغلاف وبدأت عيناه تلتهم كلمات دوّنها الكمبيوتر: «نهمس لك همساً.. بالطبع أنت الأدرى بمصلحتك.. ستقود سيارتك بشارع «... ...» وذلك فى تمام الساعة «... ...» وسيبدأ سيرك من ميدان «... ...» بحيث لاتتجاوز سرعة سيارتك «... ...» كيلو متراً فى الساعة.

بعد أن وصل المظروف الأصفر المنتفخ.. كان الذى جاء به يقف بين رجال التحقيق مبهوتاً وهو يروى فى ذهول مشوب بالتوسل الأقرب إلى البكاء.. عدم معرفته مطلقاً بذلك الشاب الأنيق الذى دخل المطعم لتناول الإفطار ثم خرج وقد نسى المظروف..! على مقعده ليأتى به العامل الأمين إليه، وحين قرأ صاحب المطعم العنوان المدوّن على الغلاف: «هام وعاجل لإطلاع السيد الوزير.. بشأن المهام المطلوبة فوراً..» أسرع بعد تفكير إلى توصيله بنفسه دون أهمية لمشقة.. سعياً إلى تأدية الواجب، وربما انتظاراً لكلمة شكر ممّن سيصل إليه المظروف!!

وكان صاحب المطعم أثناء التحقيق معه يحاول جاهداً أن يبرر موقف الشهامة الذى دفعه إلى ذلك التصرف وهو الذى حسبه حميداً.

بينما كان فى نفس الوقت يتحدث من داخله: حاولت أن أكون فارساً للواجب، لكن المتاعب لاحقتنى حين كانت فى انتظارى، كالذى حاول فض اشتباك فسقط صريع الطرفين المتنازعين.. تطلعت إلى الشهامة فصارت ندامة ليتنى.. ليتنى..!! لم تنزل الطامة على صاحب المطعم وحده، بل جيء بالعامل أيضاً وهو الذى عثر على المظروف فوق المقعد حيث دخل فى دوامة المساءلة طيلة ساعتين، وكان من سوء حظه.. ليلة

مكروهة قضاها وهو يتنفس الصعداء خارجاً..

يحمد الله كثيراً أن أمد البقاء رهن التحقيق لم يَطُل به أكثر من ذلك.

* * * * * *

لما استقل الوزير سيارته من الميدان المتفق عليه وفى الساعة المحددة تماماً، وصل إلى الشارع المحدد فى نفس الموعد المحدد سلفاً حتى جاءه النداء على المحمول معه..

«انطلق دون أدنى التفاتة حولك، ولا تنسى الطريق الذى سلكته من قبل.. حيث أوصلك إلى فيلا صديقك وهو الذى حضرت عيد ميلاد ابنته..»

حين استمع إلى تلك الكلمات التى فاجأته.. تقاذفته عدة تساؤلات محيرة:

من ياترى ذلك المتحدث؟؟!

إنه يعرف الكثير.. آه لو دفعت نصف عمرى الباقى حتى أصل إليه.. وقبل أن تستفحل الأمور وتزداد سوءاً من حولى!! ثم ماذا يريد ذلك الملعون؟؟! لسوف أجعله يندم على كل لحظة وضعتنى فى هذا المأزق وتلك المعاناة التى كنت فى غنى عنها.. لكننى الآن وللأسف الشديد لاأملك غير الصبر، وخضوع المضطر، وامتثال المجبر على مضض رغم أنفه.. حرصاً على ولدى الوحيد قبل أى شىء.

وقبل أن ينتهى من شحنة أفكاره الذاتية الملتهبة بجمرة الحنق والغيظ.. سمع محدثه على المحمول بعد عدة دقائق وللمرة الثانية يقول: «لاتُفكر كثيراً هكذا!! لاتحمل لنا غلاً أو نقمة.. فكم سحقتنا الأيام ونسيتنا الأحلام التى ضاعت وتسربت من فوق أجنحة وعودكم لنا..

من أجل ذلك.. وجب عليك أن تعيش بعض عذابات المعاناة التى تمرغت فيها نفوسنا قبلكم، وأنتم بعيدون عنها..»

قال الوزير مندهشاً وفى حالة من الغيظ الدفين:

- ماذا تريد بالضبط؟! أنا لا أفهم شيئاً؟!

- أنسيت ادعاءك فى كافة وسائل الاعلام عن اتخاذ عدة إجراءات

هامة وضرورية لتخفيف حدة البطالة.. وكانت كلماتكم فى كل مناسبة تغلفها الأمنيات الوردية والآمال المستقبلية..

- وما الضير فى ذلك؟

- كل ما ذكرته وقتذاك كان بلا فاعلية.. لم تشغلكم بحق وصدق فرصة زراعة البساتين المملوءة بثمار الوعود الفعلية..

- كيف؟

- كم مرة وقد أعلنتم عن مسابقة مفتوحة للكافة ظاهرياً لشغل عدة وظائف فى مجال الكمبيوتر بالمؤسسات التابعة لكم، وكنت ضمن الذين سارعوا بتقديم كافة المستندات المطلوبة واجتياز الاختبارات بكل همة قائمة على الثقة بالنفس فى استلهام ذلك المجال الذى عشقته منذ الصغر.. غير أن واقع الحال كان خلاف الأمنية.

فقد نال الوظيفة بضعة أفراد قلائل وبطريقة لاتخفى على الفطنة المجردة من العبث والمحاباة المنصهرة فى بوتقة العدل الضائع لأمثالنا.. إن مجرد استرجاع أسماء المحظوظين تؤكد من هم هؤلاء، ومن هو الذى وراء اختياركم على تلك الشاكلة القميئة.. تلك التى تفتح الأبواب على مصاريعها أمام من يعرف بصمة الافتتاح غير المعلنة.

قال الوزير وهو يهز رأسه فى تأمل:

- فهمت.. سأرفع عنك كل ظلم أحسست به.. وسوف تجد العمل الذى يناسبك.

- لقد بذلت غاية جهدى للحصول على أية وظيفة عندكم، وتقدمت بكل الأوراق المطلوبة وكافة ما يتعلق بالمجال التكنولوجى المتطور للكمبيوتر.. ومع ذلك ضاع حقى، وهأنذا قد ضعت معه بعد أن ضلت الشفافية طريقها المفروض!!

قال الوزير فى شبه تأكيد:

- لاتتسرع فى الحكم.. كل شىء يمكن علاجه، وقابل للإصلاح، ولكن ليس بهذه الصورة التى تدين تصرفك، وقد تذهب بك إلى غياهب السجون أو ما هو أنكى من ذلك!

- باختصار شديد.. أريد مليوناً من الجنيهات.. كتعويض عما

لحقنى من أضرار مادية ومعنوية، وما أصابنى من إحباط وتدمير طوال معاناتى وحتى اللحظة التى أحدثك فيها الآن!

- وكيف يتيسر لى ذلك وبسهولة كما تعتقد أو تظن؟

- هذا هو مطلبى الآن، وسأخطرك كيفية الدفع لاحقاً.

قال الوزير وهو يؤكد فى شىء أقرب إلى اللهفة:

- سأحاول جاهداً.. المهم الآن أن أطمئن برؤية ولدى، أو على الأقل سماع صوته.. أرجوك لاتمانع فى تحقيق هذه الرغبة.

أجاب المتحدث على الطرف الآخر:

- سنرى تحقيق إحدى الرغبتين حال التمكن من ذلك.. اطمئن.

* * * * * *

عاد الوزير مهموماً أكثر مما كان عليه قبل تلك المكالمة الملعونة.. تزاحمت الهواجس عنده حتى ملأته التساؤلات حيرة:

«ماذا يفعل حيال ذلك المختطف المأفون؟ وكيف يصل إليه وبسرعة حتى يطبق على رقبته وليجعله عبرة لكل أفاك أثيم..!

ذلك المعتوه الذى يتحدث عن حق ثم يسعى ليحاسبنى عليه فى أعز ولدى.. صحيح أن المسئولية وضعتنى على قمة العمل الذى يخدم مصالح الجماهير وقد التزمت بكل ذلك فى إطار القوانين واللوائح التى تنظم تلك الأطر المتشابكة بين المسئولين ومطالب الجماهير وثمة حقائق تدعونى إلى المواءمة بين المطالب والمهادنة، بل وجعل المناخ طبيعياً وشفافاً أمام العيون بلا استثناء..!»

فجأة تذكر الوزير.. «لاتنس الطريق الذى سلكته من قبل حيث أوصلك إلى فيلا صديقك وهو الذى حضرت عيد ميلاد ابنته..» ثم عاد يتساءل بقوة وتركيز شديدين:

مِمَ علم بكل تلك التفاصيل؟!

يوم حفل عيد الميلاد.. الحاضرون.. شخصياتهم.. أعمالهم.. بعض السيدات اللاتى حضرن الحفل ولايتجاوز عددهن أصابع اليد الواحدة..

نعم.. نعم هل يكون المتحدث أحد الذين حضروا الحفل.. مثلاً..!

لقد دبر الوزير أمراً وعقد العزم عليه.. وخلال ساعات قلائل.. كان

صديقه «محسن» الذى أقام حفل عيد ميلاد ابنته، يزوره فى مكتبه حسب رغبته الملحة!

استقبله الوزير مرحباً.. ثم جلسا يتحدثان للحظات.. حتى تطرق حديثهما عن ليلة عيد الميلاد التى حضرها الوزير.

ثمة فرصة سانحة ابتدرها الوزير بقوله:

- أعتقد أن معظم الحاضرين تربطك بهم صداقة معينة!

ضحك الصديق وهو يؤكد:

- بالطبع.. وإلا ما كنت دعوتهم إلى الحفل.

- أظن أن معظمهم رجال أعمال.. أو مشهورون!

- فعلاً.. هل شُرف أحدهم بمعرفتك؟

- لا..

- إذن.. فيم تسألنى عنهم، وفى أى شىء تهمك أعمالهم؟

- أبداً.. مجرد استفسار عادى طرأ فجأة.. أو سمه حب الاستطلاع عند الإنسان.

ضحك صديقه وهو يقول مازحاً:

- هل تود التعرف إليهم -وهو يبتسم- ربما يتيسر لك خدمة أحدهم.

صمت لحظة وهو يواصل: الكل يتمنى أن يحظى بشرف صداقتك.

تنهد الوزير وهو يستلهم الإجابة المناسبة:

- ربما.. ربما.. وفى حكم القانون الصحيح.. كل شىء فى حاجة إلى الوقت المناسب.

- لاتشغل بالك كثيراً بالسؤال عنهم.. ولكن لماذا تسألنى عنهم؟!

- أظن لا مانع أن ترسل لى أسماء الذين حضروا حفل عيد الميلاد وبالتفصيل المفيد.. هه..!!

- لماذا تلك الأسماء بعينها وبالتفصيل الذى تريده؟!

- ستعرف كل شىء فى حينه.. أرجوك أن تتفهم موقفى الآن.. ومدى أهمية ما أطلب منك.. خدمة لـ..!

- فهمت!

- ماذا فهمت؟!

- أنا معك بكل جوارحى من أجل ولدك.. ليتنى أملك المساعدة بأكثر من ذلك.

- بدأت تتفهم بعض العلل التى تؤرقنى، بل وتدفعنى إلى البحث والتنقيب فى كل ما هو حولى.. حتى إن كان اعتقاداً لايرقى إلى الحقائق المنطقية.. لكن الشك صار يشوب كل شيء.

******

كان الطفل المخطوف قد صار إلى حالة من الضعف والذبول.. بدأت تخيف الفتاة التى قامت على رعايته، بينما كان الخاطفان يعتقدان أنها الأقدر على فهمه ومن ثم ارتياح الطفل إليها والتجاوب معها، فلم يأت تصرفهما بما كانا يؤملانه.

من أجل ذلك أخطرتهما الفتاة بضرورة الإسراع فى حل معضلة الاختطاف وما يترتب عليها من أخطار ستحيق بالطفل المخطوف.. حيث أنه أوشك على الهلاك بسبب امتناعه عن تنفيذ أوامرها، فقد امتنع عن تناول الطعام، ثم حالة التبول اللاإرادى التى انتابته منذ وصوله، إضافة لكثرة بكائه وتقرح عينيه مع الفزع المستمر الذى يلازمه كلما غفت عيناه أو استيقظ فجأة حتى أوشك على الصرع!

عقد ثلاثتهم اجتماعاً طارئاً وقال زعيمهم صاحب خطة الاختطاف من أساسها وحتى لحظة اجتماعهم:

- لامجال للتراجع.. سنعجل فى بعض خطوات خطتنا بعد أن صرنا فى مركب واحدة.. لابد أن نعبر بها حتى يتحقق الهدف، وكما قلت لكما فى السابق.. سنصبح أصحاب أكبر شركة فى مجال الكمبيوتر بعد شرائها، وقد تم تدبير كل ذلك منذ بدأت خطتى مع صاحب الشركة الذى عملت فيها معه فترة.

قال صاحبه الثاني: كيف؟!

أجاب الزعيم فى شيء من الافتخار:

- تلك الأجهزة التى تمت مصادرتها من الشركة إياها، وبعد أن خطفنا الطفل، سوف نتخذ من فديته ثمناً للشركة.. قررت أن أضرب عصفورين فى وقت واحد!

- تضربهما بحجر - قال ذلك وهو يضحك مازحاً..

- بحجر أو بالضربة القاضية.. سيان.. سمه كما شئت.

- أود أن أفهم أكثر!!

- صاحب الشركة الذى استغل أعمق خبراتى، ظل ينكرها ولايعيرنى أدنى اهتمام، رغم المكاسب التى كنت السبب الرئيسى لها، وهو يتهرب من الضرائب مراراً بمساعدتى ولم أنل ما يوازى عشر معشار ما دخل جيبه آنذاك.. إنه منتهى الظلم الذى أصابنى كلما اتجهت.

توقف فجأة وهو يسترجع عبر الذكريات.. بعض التصرفات المجحفة من جانب صاحب شركة «كومبيا تاركو الحديثة»:

كم من الصفقات كنت السبب المباشر فى عقدها، بل كم من الأرباح جنته بها؟! دخل جيبه آنذاك آلاف الجنيهات..!

لا أنسى صفقة صغيرة عقدتها آنذاك.. جاءت له بخمسة وعشرين ألفاً فى دقائق، ومع ذلك لم أنل منها سوى خمس ورقات فئة العشرين جنيهاً فقط.. نسبة ظالمة.. ترفضها كل أصول التعامل فيما يسمى «البيزنس».

كان وكأنه يمن على أمثالى، بينما ينسى مدى ما حققه من أرباح بتواجدى بجانبه.. إنه بخيل لدرجة مقززة.. برغم أنه لايدرك حقيقة الشح الذى يتعامل به معى..!

- وما شأنك بالوزير؟!

- إنها قصة وأى قصة.. بدأت بمعاناة السعى إلى وظيفة أقتات منها، وانتهت بأناس تم تعيينهم برؤى خاصة.. تندرج تحت محاباة لاتغفلها عقول الذين هم فى حاجة ماسة إلى العمل، من أجل حياة كريمة تظلهم، وكان الوزير باستطاعته أن يفعل الكثير من خلال موقعه.. خدمة للشفافية التى ابتعدت عن العيون المبصرة، لكن القلوب التى تنشدها تراها بحسها الذى لايُخطىء.. ألم أقل لك: إنه منتهى الظلم الذى أصابنى كلما اتجهت.

عقّب الثاني بقوله:

- نحن لا نملك الآن شيئاً، بينما نثق فى ذكائك الذى تأكد

للكثيرين.. المهم الآن أن تخلصنا من الورطة التى نخشى أن تصير إلى كارثة بموت الطفل.. فلا نصل إلى «عنب اليمن أو بلح الشام».

ثم زادت الفتاة فى شىء من الخوف والتشكك وهى تقول:

- إن قلبى يتقطع كل لحظة، وأخاف على الطفل ومصيرنا من بعده!

نهرها زعيمهم معنفاً بقوله:

- عقلك قبل عاطفتك.. إياك والعاطفة فى مثل موقفنا.. يجب أن تكون قلوبنا مثل إرادتنا التى تسير بنا إلى تحقيق هدفنا.

قال ذلك فى غضب، وأخذ يتمشى وهو يقدح فكره ثم اقترب من الفتاة يحادثها للمرة الثانية وبصورة أقرب إلى الهمس:

- سأضع حداً لكل مخاوفك ومخاوفنا.. إطمئنى بالاً..

ثم أشار لصديقه حيث صحبه بعيداً عن الفتاة والطفل ليؤكد له بقوله:

- جاءتنى الفكرة التى ستنهى كل شىء كما رسمت تماماً.. بدون عوائق أو عقبات.

ثم توقف لحظات وهو يزرع المكان جيئة، وذهاباً، وإحدى يديه فى جيب بنطاله، بينما يده الأخرى ممسكة بذقنه.

كان صديقه يتأمله حين طافت بذاكرته كثير من ذكريات المعاناة التى سدّت أمامه كثيراً من طموحات الأمل والتفاؤل لما حصل على مؤهله الصناعى فوق المتوسط بقسم الكهرباء ولم يجد عملاً ثابتاً يوفر له متطلبات حياته فيما كان يرجو ويتمنى، بل تقلب على لهب الانتظار الطويل، وقد أجبرته الظروف على العمل لفترات متقطعة لدى من يريدونه بصفة غير دائمة أو منتظمة.. حيث كان يعمل أسبوعاً، بينما بقية الشهر عاطلاً بلا عمل..!

تطلع إليه صاحبه وهو يقول فى شىء أشبه بالتمنى:

- إن كنت لا أفهم ما برأسك الآن.. لكن ما أرجوه أن نبتعد عن الجريمة.. كاملة الأركان وهى التى ربما تديننا فيما بعد!

برقت عيناه فى وجه صاحبه غيظاً وهو يقول فى عتاب مشوب بالضيق:

- لا أدرى كيف ظهر التخاذل عندكما.. الخوف لايحقق أية نتائج إيجابية، وسيعود عليكما بالندامة.. يجب أن تقتلا الخوف قبل أن يقتلكما..!!

- أخشى أن نندم على شىء آخر..

- لقد دخلنا فى نفق الشياطين وتعمقناه، ولايبقى غير الصمود وهانحن نسير في الطريق وسوف نجد المخرج المناسب.. فلا مجال للعودة أيها الشيطان الأزعر..

قال ذلك مازحاً وهو يضرب بكفه ظهر صاحبه.

* * * * * *

فض الوزير مظروف صديقه الذى وصله فى التو، وبلهفة أخذ يقرأ الأسماء التى طلبها من قبل.. كانت الأسماء حصراً شاملاً لكل من وطأت أقدامه مكان الحفل.. ولقد نسّق صديقه الأسماء بطريقة أراحت الوزير.. حيث سجل الأسم كاملاً مع إضافة عدة بيانات لكل اسم تشتمل على: العمل القائم به صاحب الاسم، عنوانه، ورقم التليفون إن وُجد، مضافاً لذلك نبذة مختصرة لاتزيد عن سطرين أو ثلاثة لسيرة حياته، ومدى تعثره أو تقدمه فى مسيرة الحياة.

كانت عينا الوزير تلتهم كل ذلك وبسرعة غير عادية حتى ضرب بيده على اسم معين وهو يتساءل بعمق تركيز الاستطلاع الورائى.

إنه يتذكر ذلك الاسم على وجه التحديد.. حين رأى صاحبه ذات مرة وتحدث معه.. وكان الحديث بشأن محاولات مستميتة حول بعض أجهزة الكمبيوتر التى جلبها وقتذاك لما حاول أحد رجاله المعتمدين لديه، والذى يعول عليه كثيراً وهو مهندس فى مجال الكمبيوتر أن يتسلم الشحنة بطريقة يشوبها التدليس التى كشفها رجال الجمارك وقتها، وقد بذل المستورد الحقيقى كافة جهوده لتخليص الشحنة بحجة قلة خبرة المهندس في مجال الإجراءات، مما تسبب فى خسارة الشركة حسب تقديرات صاحبها بما يوازى مليوناً من الجنيهات.

بمجرد أن قرأ الوزير كل ذلك حتى تساءل بين نفسه:

إذن وقعت أيها المخادع المحتال، ولسوف أحيطك بسياج من الحصار

حتى أخلِّص ولدى من بين يديك، ثم أضعك على النار الهادئة بعد أن وضعتنى على النار الملتهبة.

أسرع الوزير متحدثاً بالتليفون إلى كبير المحققين الذى حضر ليفضى إليه بكل ما توصل إليه.. ومدى استنتاجاته وهو يضيف أن قرار مصادرة أجهزة الكمبيوتر المستوردة.. كان التصديق عليه رسمياً بتوقيعه ولا يمكن التراجع عنه رغم محاولات المستورد الخروج من الورطة بأى صورة فلم يستطع إلى ذلك سبيلاً.

وعلى أثر ذلك.. اتخذت عدة إجراءات سريعة وحاسمة بدأها كبير المحققين، حيث أمر بوضع طاقم مراقبة دائم طوال أربع وعشرين ساعة حول تحركات المدعو «محسن» رجل الأعمال وصاحب شركة كمبيوتر «تاركو الحديثة»، وعقب المراقبة المستمرة بيومين تم استدعاؤه حيث سأله كبير المحققين عما أظهرته التحريات، وعن الشكوك التى دارت حول اختطاف ابن الوزير حين ابتدره بقوله:

- هل تعرف لماذا استدعيناك الآن؟

- بالطبع لا.. أريد أن أعرف!!

- تأكد لنا أن شركتك وخاصة بعد مصادرة صفقة الكمبيوتر إياها.. صارت إلى حالة من التردى لدرجة جعلتك تسعى إلى تصفيتها بالتنازل لمن يتقدم لشرائها.

- لا أنكر.. مرت بى ظروف قاسية، وليست من الغرابة أن تمر بها شركتى أو أية شركة أخرى.. إنها السوق ومجال التجارة بمساره الصاعد والهابط.

- كم تتعلّلون بأشياء بعيدة عن الواقع!

- الحظ العاثر لازمنى فى الصفقة الأخيرة بسبب ذلك المهندس.. لاداعى لذكر اسمه، فقد كانت ثقتى به عمياء، والحق يُقال: كان عبقرياً فى تخصصه وغبياً فى إجراءات تخليص الشحنة بالذات..!

- أسألك الآن عن تصفية الشركة، وبحثك عن مشتر لها وليس عن شىء آخر.

- فعلاً.. أبحث عن مشتر، إنها الوسيلة الوحيدة التى تُبعدنى عن

مسار الإنهيار لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

- بالمناسبة، كم تطلب ثمناً لها ؟

- الحد الأدنى.. مليوناً.. وإن كنت أطمع فى المزيد لأنها تستحق أكثر من ذلك، وأي مشتر يعلم بذلك.

- وهل وجدت مشتر يتناسب مع أدنى سعر تطلبه لها ؟

- إننى على وشك إتمام ذلك.

- مَنْ المغامر الذى تقدم لشرائها ؟!

- بل قل: من الذى وعد بإحضار المشترى؟

- من؟!

- منْ عجائب الحياة، وقمة المتناقضات أنه المهندس الذى كنت أعتمدَ عليه -فى السابق طبعاً- اعتماداً أساسياً وخاصة فى كافة النواحي الفنية و...!!

- تقصد..!

نعم.. فهو الذى حاول دون إخطارى إتمام كافة الإجراءات الجمركية بدون خبرة وبطريقة أضرت بشركتى ضرراً شديداً.

- إذن.. كيف تأمن له ثانية، حتى تُعيد اعتمادك عليه ليأتيك بالمشترى حسب قولك؟

- «المضطر يركب الصعب أحياناً».. وليس من سبيل غير انتظار العرض المناسب، والمهم فى كل ذلك.. ستكون لى حرية الموافقة أو الرفض.

هز مفتش التحقيق رأسه وهو يفكر ثم قال:

- أتقول مليوناً من الجنيهات كحد أدنى وكمبدأ للموافقة؟

- إنها تساوى أكثر من ذلك، لكنها الظروف الاضطرارية حتى أنتهى من العقود المبرمة، ذات الشروط القاسية، والمحددة بوقت معلوم للسداد وقبل الإتجاه إلى المحاكم والقضاء، وأنت تعلم القضاء مع المدينين أمثالى.. المليون المنتظرة ستفك الأزمة لكثير من الدائنين.

* * * * * *

ربط كبير المحققين بين المليون المطلوبة لسداد حق الدائنين والمليون

التى طلبها المختطف كفدية لفك الأسر عن ابن الوزير حين اختتم المختطف إبلاغ الوزير بالتليفون حينذاك، وهو يؤكد أن المبلغ يعتبر تعويضاً عما لحقه من أضرار مادية ومعنوية أدت إلى الإحباط والتدمير.. من أجل ذلك تقدم بمذكرة إلى النيابة تضم كافة تفصيلات القضية بما تشمله من تحريات جادة وبيان قيمة الفدية التى طلبها المتهم، ثم أقوال صاحب شركة «كمبيوتر تاركو الحديثة»، ومدى حاجته الملحة إلى مبلغ يضاهى تماماً الفدية المطلوبة، وقد اختتم المذكرة بمدى الشك الذى يساور الوزير نفسه وأجهزة الأمن التى تتابع القضية.

وحين صدر الأمر بتوجيه الإتهام إلى «محسن» صاحب الشركة.. تم احتجازه أربعة أيام رهن التحقيق.. خرجت الصحف اليومية وهى تحمل عناوين مختلفة عن تطورات القضية وما وصلت إليه، وهى تؤكد قرب ظهور الحقيقة التى صارت قاب قوسين أو أدنى!! وإن كانت «الرياح تأتي بما لاتشتهى السفن..».

ذلك ما طرأ بوجدان الوزير صبيحة الليلة التى احتُجز فيها صاحب الشركة لما جاءت مكالمة للوزير تخبره:

«إذا كنت حريصاً على حياة ابنك وعودته سالماً.. عليك أن تتوجه، وبدون إخطار أحد من رجال البوليس، حتى أفراد أسرتك.. إلى منطقة «... ...» حددها الجانى بدقة وهو يواصل: ستجد بالقرب من المبنى الأثرى هناك وعلى بعد بضعة أمتار.. قرب نهاية المبنى من الجهة الغربية سيارة سوداء على الجانب الأيمن من الشارع حطمها حادث منذ أيام، وقد تطاير معظم زجاج نوافذها..

لذا وجب عليك أن تضع المبلغ المتفق عليه داخل كيس أسود من «البلاستيك» حتى لايكون محل شك، ثم تقذف به على المقعد الخلفى للسيارة من جهة الحائط القريب من السيارة والمواجه للنافذة وليس من جهة الشارع، سوف يكون الوقت المناسب لذلك، قبل الفجر بساعة دون أن يراك أحد على الإطلاق ثم ترجع بكل هدوء.. لاتنسى! مع ملاحظة أن أي خطأ غير متوقع منك سيودى بحياة الإبن لا محالة، وحين يتم ذلك بصدق وبلا خداع بين الطرفين: سيرجع الإبن خلال أربع وعشرين ساعة

من الحصول على المبلغ.

بمجرد أن استمع الوزير إلى محدثه على الطرف الآخر، أحس بشبه دوار، فأمسك جبهته بيده وهو يتنهد تنهيدة تحمل كل الهموم التى أثقلته، ثم بدأ يرد على المتحدث إليه بنبرة يشوبها الارتعاش والتوجس وهو يقول:

- مهلاً.. أود أن أقول...!

قاطعه المتحدث على الطرف الآخر:

- لا وقت للتمهل.. اختصر.. سأنتظر.

- لحظة!

- قل وبسرعة.

- حالياً المبلغ المطلوب غير جاهز كاملاً، خاصة وأنك تطلبه فى ذلك التوقيت!

- لا وقت عندى، كل دقيقة ولها ثمن -صمت برهة- ربما يكون ثمنها حياة المحروس نجلكم.

- أريدك أن تتفهم موقفى بوضوح، كل ما أحتكم عليه الآن لايزيد عن عشرين ألف.. هل تقبل؟ ومنذ الصباح الباكر سأتنازل إليكم بالتسجيل إن أردتم فى الشهر العقارى.. عن الشاليه، والسيارة وبعض الممتلكات الأخري التي أمتلكها تحت أي اسم ترونه مناسباً، وتحت أي مطلب تطلبونه.. إنها كل إمكاناتى.. سأكون تحت رغبتكم.. المهم أن...

قاطعه الطرف الآخر بقوله:

- لاتسمح ظروفنا بكل تلك العروض.. عليك أن تتصرف.. قدِّم كل ماسبق رهناً لما تُريد، وستجد من يقبل بذلك.. المهم الآن سننتظر نصف المبلغ أي: «نصف مليون جنيه» هذه آخر شروطنا.

- سأحاول!

- كلمتك الأخيرة لاتبعث الاطمئنان، وما يهمنا هو صدق وجدية الإلتزام بالتعليمات التى وصلتك بخصوص الخطة فيما بيننا، أما غير ذلك فقد ضاعت الفرصة وسيصفعك الندم طوال حياتك.

- مفهوم.. مفهوم..!

أحس الوزير وكأنه يغوص فى دوامة لا نهاية لها ولا قرار..

ماذا يفعل حيال هؤلاء الخبثاء وهم الذين فقدوا عقولهم وضمائرهم معاً حتى ماتت أحاسيسهم؟!!

ثم.. كيف يصير موقفه أمام الرأى العام والأهم بالطبع.. من بيدهم مقاليد الأمور؟!

الشجاعة والضعف، كلاهما ينهش قلبه! الخوف والجرأة يتصارعان بداخله، أيهما يغلب الآخر.. لابد من قرار.. قرار مصيرى ربما يقف به على أعتاب الحياة التى يعشقها أو يغوص معه إلى سراديب النسيان ومن ثم الموت الذى يخشاه. كلاهما يتراقص أمام مخيلته.. ماذا يفعل؟! المنصب والمكانة.. أم الانزواء ثم الشماتة وما يعقبهما من القيل والقال.. الإبن وما يمكن أن يحدث له. أيتها الشجاعة كم أتمنى أن أستمد منك العون..

ثم تنهد بعمق وصرخ فجأة بصوت خافت:

- يا الله.. أسألك الرحمة.. لابد من قرار.. قرار حاسم، ثم عقب مستدركاً: اللهم لا أسألك رد القضاء.. ولكن أسألك اللطف فيه.

بعد ساعة من تلك المحادثة التليفونية المفاجئة، خرجت الصحف المسائية بعناوين رئيسية عن مسار تلك القضية وهى تعلن بمانشتات واضحة بمعظم الصفحات الأولى: قرار الوزير المفاجىء: «قرر الوزير صرف مكافأة قدرها.. خمسون ألف جنيه لمن يُدلى بمعلومات صحيحة تؤدى إلى المختطفين، وفى حالة إنقاذ إبنه المخطوف سوف تتضاعف المكافأة لتصل إلى مائة ألف من الجنيهات..»

مع ذكر عدة أرقام تليفونية للإتصال المباشر لمن يهمهم الأمر، ولكافة من يود الفوز بقيمة أى جائزة بناء عن المعلومات الدقيقة والصحيحة التى سيتقدم بها.

* * * * * *

بمجرد أن رأت الفتاة خطيبها عائداً مهموماً بمفرده حتى التقت به بعيداً عن الطفل وقالت له:

- أين صاحبك الذى ورّطنا معه؟! آه.. لولاك ما خطوت خطوة فى هذا الإتجاه المفزع.. الطفل على وشك الموت.. لن يتحمل معنا أكثر من ذلك، فهو يرفض الطعام والشراب، وتزداد حالته سوءاً. إن لم يرجع إلى أهله سيضيع منا، ولا يبقى لنا غير عقاب الأرض والسماء.

استمع إلى كلماتها وانطلق الخوف يحاصره، بينما الندم يَتْسلل زاحفاً وهو ينشب أظافره فى وجداناته حتى وخزه الضيق فارتفع صدره بزفير حار، وغمت نفسه شاردة فى أتون من القلق والتوجس، وحين أحست بصمته المريب، وشروده الغريب.. كررت قولها:

- لمَ.. لم ترد.. كما أنك لم تعتد القدوم بمفردك.. دائماً تأتيان معاً..؟

أجابها فى ضيق مشوب بالإحباط:

- لقد تركت صاحبى وهو يبحث عن بعض الصحف المسائية ليطالع فيها بعض الأنباء.. وخاصة ما يهمه، وسيأتي حتماً بعد قليل.

وفى أثناء حديثها معه.. سمعت الطفل يتقيأ، فأسرعت إليه ولم تلبث غير دقائق حتى عادت مهرولة فى لهفة واضطراب وهى تقول:

- لابد من الإسراع به فوراً إلى طبيب.. هيا بنا الآن.. قالت ذلك وهى تستطلع وجه خطيبها الذى أصابته الحيرة والتبلد، وفى لحظات تهيأت للخروج وبدأت تعد الطفل لذلك.

وقف خطيبها يحادثها وهى على وشك الخروج:

- أى طبيب ستذهبين إليه؟!

- المهم أن يصل إلى أقرب طبيب للأطفال.. وسأكون خالته إن سئُلت عن ذلك، وأمه مسافرة بعد أن عهدت به إلىّ.. مارأيك!

- أخشى إفشاء سرنا عن طريق الطفل فيقع ما يقع من... قاطعته على الفور:

- وماذا نفعل؟ هل نتركه ليموت أمام أعيننا وبين أيدينا؟! ليس أمامنا وقت.. وليكن مايكون!!

وقبل أن تهم بالخروج بصحبة الطفل.. إذ أقبل الزعيم من الخارج فلمحها، وحين أدرك مقصدها، أسرع بوضع القناع على وجهه واقترب

منهما، بينما صاحبه يقف على مقربة وهو يرقب الموقف الذى بدأه الزعيم بقوله:

- أين تذهبين ومعك الطفل؟!

- إلى الطبيب.. أنه بدأ يتقيأ.. قبل أن يموت!

- ماعليك.. سيتسلمه أبوه فى أقرب فرصة.. لاداعى للتسرع.

قالت بعنف المرأة وحنان الأمومة:

- يا لقلبك القاسى ليتك تعرف عاطفة الأبوة.. لم تعرفها، ولن تتذوقها طوال حياتك فما بالك بقلب الأم!

- إهدئى وإلا ضعنا جميعاً، فقد ارتبط مصيرنا سوياً.

قالت بتصميم وعناد:

- لن أهدأ قبل أن أطمئن على إنقاذ الطفل.

التفت الزعيم إلى خطيبها الذى اقترب منهما وهو لايدرى ماذا يفعل حتى ابتدره الزعيم بقوله:

- عليك أن تمنعها حتى ندبر أمرنا سريعاً.. سأمهلك خمس دقائق فقط لإقناعها.. «ولقد أعذر من أنذر»!

لكن خطيبها لم يستطع أن يقنعها أو يمنعها بعد أن اتخذت قرارها النهائى.

وقبل أن تصل إلى الباب الخارجى للبيت أسرع إليها الزعيم وانتزع منها الطفل عنوة وأعاده إلى حجرته ثم أغلقها من الخارج، ولما حاولت فتحها اعترضها بقوة ثم أزاحها بعنف فألقى بها أرضاً.. أسرع خطيبها معترضاً ذلك التصرف الغاضب والمتسرع من الزعيم، لكن الزعيم لم يلق بالاً لما حدث مما زاد من حدة النقاش ومن ثم الاختلاف حين أمسك خطيبها بقضيب من الحديد مهدداً الزعيم ومؤيداً ضرورة إنقاذ الطفل، وهو يشير لها بالخروج دون الخشية منه.. فى تلك اللحظة -الالتفاتة والإشارة- التقط الزعيم سكيناً حادة النصل كان يُخفيها فوق ساقه اليمنى.. أعلى الحذاء مباشرة.. حيث سددها بعنف الإجرام إلى صدر صاحبه. غاصت إلى منتصفها ليسقط صاحبه أمام حجرة الطفل المغلقة، ونافورة من الدماء تنسال فوق صدر القتيل متسربة إلى الأرض فى

خطوط متداخلة مفزعة، وقبل أن تصرُخ أو تنطق، وهى فى شبه ذهول من هول الصدمة، كتم صوتها وظل يضغط على فمها لفترة حتى سقطت على الأرض، ثم هوى على رأسها بالقضيب الحديدى حتى تأكد من موتها!!

وقف لحظات وهو يلهث ويتأمل الجثتين ثم يتساءل بعمق الداهية:

لاشك أن الطفل لم ير وجهى حتى الآن، فقد كنت حريصاً على ذلك أيما حرص. إذن فهو لن يتعرف إلى حقيقتى، وبالتالى لم يعرف شخصيتى.

وطرأت له الفكرة الجهنمية التى ابتسم لها لمجرد أن وردت وتصدرت مخيلته. فقام لتوه، وبالقرب من الطفل بدأ يتصنع عدة مواقف ذات أصوات مختلفة، بدأها بصوته وهو يقول:

«حرام عليكم. لابد أن يرجع إلى أمه وأبيه. سأذهب به فوراً إلى هناك...» ثم أصدر صوتاً آخر معارضاً وهو يحتدم الخلاف بين الصوتين حتى نشبت معركة تطايرت على أثرها بعض الكراسى القديمة التى صحبها جلبة ثم سكون مفاجىء.

كان الطفل داخل الحجرة يتسمع كل ذلك وقد وصل إلى أقسى مراحل الفزع والرعب بعد أن وصل إلى مرحلة من الإعياء المميت بل وصار الفراش تحته ذا رائحة نفاذة من شدة البلل الذى لحقه..!

* * * * * *

للمرة الأولى يهرول الزعيم إلى الطفل وهو يحتضنه حاسر الوجه وبلا نقاب يُخفيه ويخيفه.. ثم يحمله بحنان الأفاعى وهو يقول:

- تعال.. خلاص. تخلصت من المجرمين الأشقياء.. لن تنال أذى من أحد بعد الآن.. سأذهب بك فوراً إلى ماما وبابا.. كما تحب هيا يابطل.. تحملت الكثير..!!

قال ذلك بنعومة مفتعلة وهو يربت ظهر الطفل.. وفى أقل من ساعتين كان يلهث بثيابه الممزقة وقد لطخت وجهه وجسده آثار من الدماء وبعض الخدوش المتفرقة وهو يقف أمام الوزير الذى بُهت من المفاجأة غير المتوقعة على الإطلاق وهو يتقدم إليه بابنه قائلاً فى

«مُداهنة مصطنعة» مشوبة بالدهاء:

- شاء الله أن يكون إنقاذه على يدىَّ بعد أن تخلصت من المجرمين الخاطفين بمعجزة..

وخلال وقت يسير، كان جمع غفير من رجال الوزير، وبعض كبار رجال الأمن وغيرهم من الصحفيين الذين هرعوا ليحققوا سبقاً صحفياً لصحفهم، كما أرسل التليفزيون أحد مندوبيه ليلحق تسجيل بعض مشاهد ذلك اللقاء الحاسم بين الإبن وأبيه، وفى حضور البطل صاحب الفضل فى إنقاذ ابن الوزير من قبضة المجرمين السفاحين بعد أن صارعهم واستطاع بفضل إصراره وحماسته التغلب عليهم حين صرعهم وذلك حسب رواية البطل التى أوجزها لوالد الطفل المخطوف، ثم أسهب فى تفاصيلها بعد ذلك!!

ولقد أفردت الصحافة الخبر فى أحد الأمكنة البارزة من صدر صفحاتها الأولى، بينما أعلن التليفزيون عن موعد اللقاء المرتقب مع البطل الذى أنقذ الطفل وذلك من خلال البرنامج المفضل وذلك فى تمام الساعة «...» من يوم «...».

وفى الموعد المحدد للبرنامج ظهر المنقذ على شاشة التلفاز، حيث تابعته الجماهير فى كل مكان. كان يجلس بمواجهة مقدم البرنامج بعد أن تبدلت ثيابه الممزقة بثياب لائقة، غير أن آثار الجروح الطفيفة مازالت بادية على وجهه، وقد غطى بعضها بشريط طبى لاصق «بلاستر»..

وحين ابتدره مقدم البرنامج بقوله:

- سمعنا عن بطولتك ودورك الإيجابى فى التعامل مع المجرم وقت أن ذهبت إلى السيد الوزير بابنه بعد إنقاذه بالطبع!

- لم أفعل غير الواجب الذى يدعونى إلى ذلك.

- أظن أن التحقيق فى قضية الاختطاف لم ينته، رغم أن البوليس استمع إلى الكثير من المبررات التى دفعت إلى قتل المجرم الخطير.. دفاعاً عن نفسك وإنقاذاً للطفل!

- فعلاً.. فقد ذكرت كل ما حدث وبالتفصيل.

- من أجلك ذلك نود أن نستمع منك عن بعض تلك التفاصيل.

- أنا تحت أمركم.

- هل تعلم أن السيد الوزير رصد مكافأة مالية قدرها خمسون ألف جنيه لمن يدلى بمعلومات تؤدى إلى المختطفين، وفى حالة الوصول إلى ابنه وإنقاذه.. سوف تتضاعف الجائزة لتصل إلى مائة ألف؟

- عرفت بذلك حين قرأته بالصدفة فى إحدى الصحف المسائية.

- إذن فقد وضعتك الأقدار أمام المكافأة المنتظرة..

- الحمد لله.

- هل تسلمت المكافأة؟

- إن سيادة الوزير بصدد إعداد المبلغ الذى وعد به.

- كيف وصلت إلى مخبأ الطفل حتى خلصته من أولئك المجرمين الذين تحجرت قلوبهم؟!

- إنها الصدفة وحدها.

- كيف؟!

- أرجوك.. لاتُذكِّرنى.. فقد كان المشهد مأساوياً ومروعاً!

- نريد أن نعرف.. حتى يتيقن المشاهدون أن الجريمة لاتُفيد.. وكل بداية سيئة لاتنتهى بغير السوء..

تململ ضيف البرنامج فى مقعده قليلاً وهو يضع يده على فمه متنحنحاً فى خيلاء ثم قال:

- كنت دائناً لذلك المجرم بمبلغ كبير، وظلت مطالبتى له مستمرة طوال أسبوعين، خاصة عندما حل موعد الوفاء بالشيك.. قررت التقدم بالشيك إلى المحكمة، وعدنى وأقسم لى بالوفاء فى أسرع وقت.. حتى انتهينا إلى موعد محدد.. حيث الموعد وللأسف هو يوم الحادث!

- ماذا حدث حين التقيتما يوم الحادث؟

- قبل لقائنا بساعتين تقريباً.. اتصل تليفونياً: وبنغمة تأكيد ادعى أنني تسرعت فى الحكم عليه وظلمته وهو مازال عند وعده حيث استطاع تدبير المبلغ المطلوب، وسينتظرنى حتى أمنحه الشيك الذى أصدره لى بعد أن أتسلم قيمته كاملاً..

- هل ذهبت إليه؟

- بالطبع.. كنت أريد الحصول على حقى!

- ألم تخف من غدره؟!

- إننى صاحب حق، وأسعى ملهوفاً لاسترداده.

- علمنا أن المكان الذى احتُجز فيه الطفل بعيد عن المدينة وفى قرية نائية، بل فى بيت منعزل عن معظم بيوت القرية، ورغم ذلك فقد ذهبت إليه!

- ذلك هو المكان الذى حدَّدَهُ لى، وطلب أن نلتقى فيه.

- قلت إن الصدفة وحدها كانت سبباً فى إنقاذ الطفل.. أليس كذلك!

- الصدفة هى التى يسرت أن ألتقى بالطفل، ثم تبعها مرحلة تخليصه من بين خاطفيه.

- كيف؟

- حين وصلت.. طرقت الباب حتى فتحت لى شابة.. حسبتها للوهلة الأولى زوجته.. قادتنى إلى غرفة قريبة وهى تقول:

تفضل.. سيأتيك حالاً.. وبالفعل أقبل مرحباً وهو يطلب منها إعداد كوبين من الشاى.. جلس قبالتى وتحدثنا حتى أقنعنى وهو يقسم بأغلظ الأيمان أن المبلغ سيأتينى خلال أربع وعشرين ساعة لاغير. فجأة طرق سمعى أثناء حديثنا أنيناً خافتاً أشبه ببكاء طفل. وقفت فزعاً وقلت له:

ماهذا الذى أسمع؟!.. حاول تهدئتى.. لكننى كنت الأسرع دون انتظار متجهاً إلى الغرفة المجاورة.. حتى صدمنى ذلك المشهد المخيف والمؤلم.. ذلك الذى لن أنساه ماحييت.. وأظنك تعرف ما صدمنى حين وجدت الطفل ممداً على السرير وهو يبكى فى حالة تدعو للشفقة والرثاء.. فى تلك اللحظة قررت عمل أى شىء من أجله!!

- من فضلك أكمل!

- بالطبع.. صرخت فى وجه المجرم بكل ما أملك بعد أن أفهمنى خطته الدنيئة.. صار الغضب داخلى بركاناً.. حاولت إزاحته مقترباً من الطفل كى أحمله إلى أهله.. لكنه فى لحظةغدر ودناءة أطاح بى أرضاً، وبسرعة خاطفة وبكل ما يملك من طاقة استطاع أن يشل حركتى، وبإشارة منه تقدمت الشابة التى كانت بصحبته حتى تمكنت من انتشال

الشيك بمهارة من جيبى وأنا لا أملك منعها، ثم هرولت مبتعدة، ولما أتيحت فرصة التخلص من قبضته بعد محاولاتى المستميتة معه، أسرعتُ خلفها حتى لحقتها وهى تمسك سكيناً مرفوعة فى مواجهتى.. تناولت كرسياً وقذفتها به ثم أطبقت على يدها لحظة اضطرابها فى محاولة تخليص السكين من يدها لحظتئذ أقبل المجرم تجاهنا وهو يرفع قضيباً من الحديد ناحيتى، وحين هوى به يريد قتلى، انحرفت قليلاً عن مساره ليسقط فوق رأسها ويقتلها، وخلال لحظات صرنا نتصارع على السكين التى سقطت على الأرض، ويبدو أن الحظ يلازمنى حتى أمسكت بالسكين وهو يحاول تخليصها، وبقوة الشد والجذب اندفعنا سوياً ولم أشعر إلا وقد انغرست فى بطنه، بعدئذ تذكرت الطفل على الفور.. ثم أيقنت فيما بعد أن القدر ربما أرسلنى لتخليصه من قبضتهم، فأنقذتنى العناية من أجل ذلك!!

– وأين الشيك الآن؟!

– للأسف الشديد.. قذفت به فى فمها ثم ابتلعته قبل مصرعها بلحظات، بينما القهر يكاد يقتلنى على ضياع الشيك بجوفها!

– كم كانت قيمة الشيك الضائع فى جوفها؟

– عشرون ألف جنيه.

– وكيف يمكن لك أن تسترده؟

– عوضى على الله.

– ذلك الشيك نظير أى شىء تم بينكما؟!

– إنه ثمن صفقة تمت بيننا.. نظير أجهزة كمبيوتر وبعض قطع الغيار ثم أشياء أخرى!!

– هل تعمل فى هذا المجال؟!

– تقريباً..

– من فضلك.. وضح لنا معنى تقريباً!

– إنها قصة طويلة للغاية بدأتها شبه عامل على أجهزة الكمبيوتر، ثم تطورت وتعمقت حتى قررت أن أحقق الطموح فى إدارة شركة خاصة بى.

وعلى مدار نصف الساعة استمع المشاهدون إلى تلك المحاورة التى اختتمها المحاور بقوله: وهكذا أيها المشاهدون الكرام نصل إلى ختام حلقتنا اليوم على أن نواصل معكم فى الأسبوع القادم إن شاء الله فى مثل هذا الموعد من خلال حلقة جديدة.

* * * * * *

إلتقى كبير المحققين بالسيد الوزير -والد الطفل- وهو يؤكد عليه ويناشده عدم إصدار شيك المكافأة، أو على الأقل تأخير التوقيع عليه لحين التأكد من عدة أمور غايةٌ فى الأهمية بشأن كافة المعلومات التى أدلى بها ذلك المدعى إنقاذ الطفل.. خاصة أن حادث الاختطاف مازالت تحيطه الكثير من الملابسات والمتناقضات التى يجب بحثها والتأكد من حقيقتها ومن ثم صدقها.. بينما كان والد الطفل -فى تلك اللحظات- غارقاً فى عمق أفكاره وتساؤلاته الحيرى.. الخاصة به وهى التى تزاحمت وتداخلت كخيوط متعددة الألوان يود لو استطاع أن يفصلها عن بعضها، كى يعرف بداية الخيط ومنتهاه، وبالتالى يفك بعض الطلاسم التى تراكمت حتى كادت تصيبه بغشاوة مدمرة.

لقد ظهر واضحاً وجلياً أن ثمة خيوطاً بدأت تتضح بألوانها بفعل البحث الدءوب والتحرى الدقيق بواسطة جهات الأمن المكلفة بذلك حيث كشفت النقاب عن عدة حقائق.

أولا: القتيل يدعى: محروس.. وهو يعمل نقاشاً وشريكته المزعومة تدعى: سارة.. وهى التى كانت بمثابة الصديقة الحميمة لزينات.. دائماً تقوم بزيارتها على فترات متقاربة حتى لحظة اختطاف الطفل، وهما لاتخفيان أسراراً عن بعضهما.

ثانياً: محروس.. حاصرته البطالة طوال فترة الخطوبة، ومؤهله الدراسى لايتعدى «دبلوم الصناعة» فوق المتوسطة «خمس سنوات» معروف عنه الإدمان حديثاً لنبات «البانجو» المخدر والمدمر للأعصاب، ومعظم مصادر إنفاقه مجهولة وفى الفترة الأخيرة كثرت الديون عليه، وهو الذى تعرّف على سارة فى إحدى المواصلات العامة حين كان مسافراً إلى خاله بإحدى المدن البعيدة عن العاصمة.. حيث استطاع إقناعها

بلطف محاوراته وبث أوهامه ذات الطموحات.. حتى صارت وكأنها السابحة فى فلك تلك الأوهام التى هيأها لها!

ثالثاً: أما الذى يدعى إنقاذ الطفل من براثن مختطفيه.. اتضح لكبير المحققين مدى قسوة المعاناة التى صادفته فى بدء حياته حين بحث عن عمل يوفر له أدنى طموح لراتب يعيش عليه، فلم يجد رغم بحثه الطويل، وهو الذى أتقن التدريب على أجهزة الكمبيوتر كإحدى أهم المصوغات للعمل فى كثير من المجالات، وقد شهد له البعض بالذكاء والطموح اللذين يتمتع بهما ويحلم دائماً أن يحققهما.

لكن الذى لفت انتباه كبير المحققين، مدى الصلة التى ربطت بين ذلك المدعى لعملية الإنقاذ، ومحسن صاحب شركة «كمبيوتر تاركو الحديثة» حيث عمل عنده فى البداية أعمالاً بسيطة تقوم على التشغيل والصيانة للأجهزة، وما لبث أن زادت الثقة بينهما حتى صار ذا أهمية لدى صاحب الشركة بعد أن أصبح يعتمد عليه فى الكثير من إدارة بعض الشئون الهامة، بما فى ذلك عقد الصفقات أحياناً، ورغم كل تلك الثقة، فقد تغاضى عن الأمانة والإخلاص كاملين، حين تسبب فى أخطاء أدت إلى مصادرة صفقة أجهزة الكمبيوتر المستوردة باسم الشركة، ثم إنهيار مركزها التجارى ومن ثم المالى وتدهورها وانحدارها فيما بعد، لدرجة أن صاحب الشركة قرر التنازل عنها لمن يتقدم لشرائها بعد المصادرة بعدة شهور.

* * * * * *

أراد سعادة الوزير أن يضع النقاط فوق الحروف حتى تتضح قراءة جوانب الحقيقة التى تقشع أركان الظلمة وقد بثها الباطل فوق أنقاض الوهم والطمع..

من أجل ذلك أعد شيكاً بمبلغ خمسين ألف جنيه، وهو يبين بوضوح أمام كبير المحققين خطته فى إطار مبدأ الالتزام الذى وعد به ذلك الذى أنقذ الطفل، وسوف يرجىء بقية مائة الألف ليوم أو يومين على الأكثر خاصة وأن الطفل قد عاد على يديه.

ولما استغرب كبير المحققين تلك الخطة القائمة على كثير من

التصرفات الغامضة والمستغربة.. تلك التى يود السيد الوزير تنفيذها، خاصة وأن الشكوك حول إنقاذ الطفل، والقتيلين وما دار حولهما من تكهنات شتى كل ذلك وغيره لم ينته بعد..! ومازالت التحقيقات لم تُستكمل.

أجاب سعادة الوزير:

- أنها فرصتى كي أتيقَن من الحقيقة التى نبحث عنها سوياً.

قال كبير المحققين:

- كيف يتأتى ذلك عن طريق ذلك الشيك؟

- سأتوجه بالضربة القاضية.. وسترى!

تنهد كبير المحققين ضيقاً وحيرة وهو يقول:

- أتظن أنك فى حلبة للمصارعة.. أرجو أن تسمح لى بهذا التعبير إذا جاز لى!

قال سعادة الوزير وهو يهز رأسه فى تأمل وتحفز وتأكيد:

- أعتقد ذلك..!

قال كبير المحققين مستغرباً:

- لاتنس أن الشك والحقيقة بينهما خيط دقيق إلى حد ما، يحتاج إلى مهارة تضاهى ذكاء الطرف المناوىء للحقيقة ذاتها، بل وتتفوق عليه إن لزم الأمر ذلك.

- كل حقيقة نود التأكد منها، تحققها الفرصة المتاحة لتجليها، وقد واتتنى تلك الفرصة وسأثبتها حتى تتأكد نتائجها.

ثم رفع سماعة التليفون وهو يؤكد والسماعة فى يده:

بسم الله نبدأ التحرك نحو الحقيقة..

ضرب أرقاماً، ثم تحدث إلى مدير البنك المسحوب عليه الشيك وهو يرجوه إرجاء صرف الشيك، تحت أية وسيلة يتعلل بها المدير ولمدة أربع وعشرين ساعة فقط من وصول حامله.. المعروف باسم: (...).

عاد كبير المحققين يعقب:

- أتظن أن خطتك ستحرز نجاحاً مؤكداً؟

أجاب سعادة الوزير متفائلاً:

- طالما أسعى إلى الحقيقة المؤكدة، سيكون الحظ حليفى فى النهاية بإذن الله.

فرك كبير المحققين عينيه وهو يستمع حيث بادر بقوله:

- على كل حال طالما تؤكد رأيك وتصمم عليه، فلا مانع أن ننتظر طوال الأربع والعشرين ساعة القادمة!

وبمجرد انصراف كبير المحققين، قام سعادة الوزير من فوره، ثم أخطر أحد رجاله الذين يعتمد عليهم، بضرورة الإتصال بذلك البطل الذى كان سبباً فى إنقاذ الطفل حتى يحضر لاستلام الشيك الخاص بالدفعة الأولى وقدرها: خمسون ألف جنيه، وذلك لحين تدبير الدفعة الثانية بنفس المبلغ.. تنفيذاً للوعد الذى قطعه على نفسه بعودة الابن..!

* * * * * *

حين وصل منقذ ابنه، استقبله الوزير مرحباً، ثم جلسا سوياً بمكتب الوزير، بعد لحظات ابتدره الوزير بقوله:

- آن لك أن تتسلم الشيك، كما تعهدت بذلك.

أجاب منقذ الطفل وكأن المال لايعنيه:

- المهم عندنا جميعاً.. هو وصول ابنك إليك سالماً والحمد لله.

أمسك الوزير بالقلم وأخذ يوقع الشيك وهو يقول:

- إليك.. خمسون ألف جنيه الآن، وخلال يومين على الأكثر ستنال مثلها، وبذلك أكون وفيت بالمبلغ كاملاً وهو مائة ألف.. حسب الإعلان الذى تم نشره وقرأته مثل غيرك.

قال منقذ الطفل:

- لست متعجلاً نيل المكافأة.. المهم.. -وقبل أن يستكمل- قاطعه الوزير بقوله:

- إنه حقك يارجل.. وغداً ستنال بقية المبلغ، أقصد نصف المبلغ الآخر وهو الذى وعدت به.

توقف لحظة ثم واصل: كان من الممكن أن تأخذ حقك كاملاً الآن.. لولا أن -ولم يُكمل..!!

توقف لحظات ثم تابع: كنت أعتبره سراً، لكنك الآن بعد عودة ولدى

على يديك، صرت مقرباً ولايخفى عنك أي سر!

أسرع منقذ الطفل قائلاً: لن تكون بيننا أى أسرار إن شاء الله.

قال الوزير وهو يهز رأسه فى شبه تأكيد:

- فعلاً.. لكنه الملعون الذى فعلها معى!

- ماذا تقصد؟!

- لقد استغل الملعون موقفى، حين اختطف ولدى، حتى حصل على كل ما أملك من ثروة وزيادة..

- أنا لا أفهم شيئاً على الإطلاق!!

- لقد أخذ منى.. نصف مليون جنيه.. هل تتصور ذلك، حصل عليها الملعون بسهولة ثم هرب، من أجل ذلك جعلت المكافأة لك على دفعتين حتى أتدبر أمرى فى الدفعة الثانية بعد أن أصبح رصيدى بالبنك صفراً.

- كيف نالها بسهولة كما تقول؟!

- إنه الخاطف الحقيقى لولدى..!! كانت له شروط غاية فى الصعوبة، من بينها إعداد نصف المليون وإيداعها فى مكان حدده لى بدقة متناهية وقد التزمت بكل تعليماته ونفذتها بالحرف كما طلب، حيث أودعت المبلغ مثلما طلب تماماً، وبدل أن يأتينى بولدى، جئت أنت به ليفوز هو بنصف المليون.. ذلك ماحدث.. تصور!!

- تقصد أنك وضعت له المبلغ فى المكان الذى حدده هو بنفسه، ثم أخذه وهرب؟

- إنه الذى حدث بالفعل، فقد نفذت له كل شىء، ولم ينفذ هو الذى وعد به.

- هل أحد غيره يعرف هذا المكان الذى حدده مسبقاً؟

- لقد طلب أن يكون المكان سراً، فأخفيته عن البوليس وجميع الناس!

- ألم تتعرف إليه حتى لحظة أن جئتك بابنك المخطوف؟

- إنه بلا شك، ذلك المجرم الذى وقع فى شر أعماله حين حصل على نصف المليون من المكان الذى يعرفه جيداً، دون غيره، ثم أرسل إليك كى

يسدد لك ما عليه من ديون.. أقصد الشيك المحرر عليه بعشرين ألف جنيه، وقد حدث بينكما ما حدث، ليموت قتيلاً على يديك..!!

انفرجت أسارير الرضا والفوز على سحنة منقذ الطفل وهو يقول فى خبث ودهاء:

- كانت تصرفاته الغبية سبباً مباشراً فى احتدام الصراع بيننا ثم الفوز عليه وتخليص ابنكم من بين يديه!

عـقّب الوزير وهو يتـصنع البـراءة: لن أنسى فـضلك وشـهـامـتك، وستأتينى غداً حتى أمنحك بقية حقك فى المكافأة، وبذلك أكون التزمت بكافة تعهداتى بشأن إبنى الذى كدت أفتقده نهائياً.

******

عَقبَ ذلك اللقاء المباشر بين الوزير ومنقذ الطفل.. صارت المتابعة الدقيقَة بكل أركانها.. تتعقب ذلك المنقذ أينما حل أو رحل خلال تلك الفترة الدقيقة الموجزة، لم تمض غير بضع ساعات حتى توجه منقذ الطفل وبحذر شديد فى اتجاه كان معروفاً ومتوقعاً من قبَل الوزير نفسه وأجهزة الأمن التى عرفت بكل التفاصيل بعد أن أخطر الوَزير كبير المحققين بكل الخطوات المنتظرة لبزوغ شمس الحقيقة.. وهو يشرح له موضحاً خطته التى أسماها: «الضربة القاضية» وهى التى ستضع النقاط فوق حروف كافة التساؤلات المنتظرة، وتكشف جهاراً عن الحقيقة التى لا لبس فيها بيقين لايدع مجالاً لأدنى شك.

عقّب كبير المحققين باقتضاب وثقة:

- ولدينا مفاجأة أيضاً!!

- ماهي؟!

- ستعرفها فى حينها.. حين تؤكد لك أيضاً كافة جوانب الحقيقة التى تنتظر بشغف بزوغ شمسها كما سبق وعبّرتم عن الرغبة فى ذلك، لقد توصلنا إلى حقائق غاية فى الأهمية!!

ثم خرجا سوياً وهما ينتظران ما تسفر عنه الأحداث المتوقعة.. خاصة بعد منتصف الليل بقليل...

فى سكون الليل وهدأته.. قرب الفجر.. والشوارع خالية.. ثمة شارع

جانبى يسوده الصمت والسكون.. تقدم منقذ الطفل بهدوء يلفه الحذر والحيطة ثم انحرف يميناً!!

ثمة مبنى أثرى قريب.. على بعد عدة أمتار من الجهة الغربية للمبنى، وعلى الجانب الأيمن من الشارع.. كانت تقبع سيارة سوداء حطمها حادث، وقد تطاير معظم زجاج نوافذها..!!

اقترب منها ببطء شديد، ثم اتجه ناحية المقعد الخلفى للسيارة من جهة الحائط وهو يمعن النظر حتى لمح كيساً أسود من «البلاستيك»، وبسرعة فائقة مد يده ساعياً لإخراجه، ولما تمكن من ذلك وجده مربوطاً.. وقف يفكر لحظات، وقبل أن يهم بفتحه.. انعكست على وجهه أضواء أنوار متلألئة من كل الجهات حتى أنه أغمض عينيه فى مواجهتها.. فى تلك اللحظات.. أطبقت عليه قوات البوليس من كل الجوانب فلم يجد مهرباً، وهى التى كانت تراقب الموقف برمته عن كثب!

وخلال دقائق كان محاطاً ومقيداً..

حين امتثل أمام كبير المحققين وهو مطأطىء الرأس بادره قائلاً:

- أخيراً.. وقعت فى قبضتنا.. رغم ذكائك الحاد.. لاتنسى أن روايتك التى ذكرتها عن مقتل شريكك وشريكتك أيضاً.. لا أساس لها من الصحة، لأن القصور يشوبها، والكذب يؤكدها جملة وتفصيلاً حيث يتنافى مع الحقيقة المؤكدة، فقد أثبت تشريح جثة القتيلة أن الموت جاء عن طريق أسفكسيا الخنق وليس الضرب بقضيب الحديد كما ذكرت.. بل إن بصمات خنقك لها وجدت بوضوح بعد مضاهاتها ببصماتك التى أخذناها منك عقب القبض عليك. كما أنه لم نجد على الإطلاق أثراً للشيك الذى ادعيت أن القتيلة ابتلعته وذلك بعد تحليل محتويات المعدة والأمعاء للقتيلة.. بل الأدهى من ذلك أن الطفل الذى اختطفته عنوة، وقمتم بتعذيبه حتى صار على شفا الموت لولا عناية الله ورحمته، لم تخدعه حيلك.. هو بنفسه تعرف إلى صوتك حين التقيت بأبيه، وهو الذى سمع صوتك دون أن تراه حين كان على مقربة من أبيه بالصدفة التى هيأها الله، لتكون شهادة دامغة ضمن القرائن التى لاتقبل أدنى شك، ناهيك عن معرفتك لمكان السيارة المحطمة بكل دقة.. اعتقاداً

منك أن المبلغ الذى سال له لعابك مازال هناك، وذلك بعد تداعيات خطتك التى حاكها شيطانك اللعين، وما أحاطها من ظروف متتابعة لم تترك لك الوقت الكافى لتحقيقها!

توقف كبير المحققين ولم يلبث أن نادى على أحد الحراس بالخارج وهو يشير إشارة معينة، تقدم على أثرها الحارس وهو يحمل الكيس الأسود حتى وضعه فوق المكتب أمام كبير المحققين الذى فك رباطه ثم أفرغه أمامه وهو يقول:

- انظر.. هاك المبلغ الذى كنت تنتظره بشغف، وحُرمت منه.. أيها الواهم الطماع!

تناثرت قصاصات من الورق المختلط ببعض أوراق ممزقة من الصحف حتى ملأت سطح المكتب أمام كبير المحققين!! أخذ يتأملها مبتسماً بينما المجرم يقف تائهاً مذهولاً..

عقّب كبير المحققين بقوله:

- إن ثمة قرائن أخرى وتفاصيل لا مجال لإنكارها لأنها لاتقبل الشك، بل وتؤكد أنك الخاطف الحقيقى للطفل الضعيف، والقاتل لمن سارا على نهج طبيعتك السيئة و...

وقبل أن يستكمل.. أجاب المجرم القاتل فى خزى واستسلام وهو يبدى الندم ويؤكد الخطأ فى حق نفسه وغيره:

- لا مجال للإنكار.. الحقيقة لاتختفى دائماً.. لأنها أقوى من الإنسان.

******

مليونير على الهامش

حلمى أبوالريش.. هكذا يناديه الناس فى كل مكان. احيل إلى المعاش منذ عدة سنوات ومع ذلك تراه أقل من عمره بكثير. لم أصدق أول الأمر. كنت أحسبهم يمزحون، ولما جمعتنى الصدفة به على مقعد مشترك فى «الأتوبيس» الدائرى الذى يمر أمام بلدتنا.. أو قل الكفر.. فى طريقه إلى المدينة، وجدت الفرصة سانحة لمجاذبته أطراف الحديث. لما نظرت إليه أيقنت أنهم على حق.. كان بشوشاً ممتلئ الوجه. خاصة فيما يتعلق بالصدغين، لم تنهش التجاعيد وجهه بعد، لكنها قليلة لاتستبان، وكانت أنفاسه منتظمة توحى بصحة لاتشوبها شائبة، رغم عمره المديد عبر رياح الزمن العاتية.

بادرته بالقول:

- على فين ياعم أبوالريش المشوار النهارده.. إن شاء الله.

تفحصنى للحظات ثم قال:

- هايكون على فين غير البندر.

- خير ياعم أبوالريش!

هز رأسه:

- عندى جلسة اليوم فى المحكمة -ربنا يستر- ضد الواد الرذل.. حمدان أبواسماعيل.. قال إيه.. استوليت على أرض الوقف وقمت بنيت عليها مدرسة خاصة. عمرك تتصور دا يحصل. بالزّمة دا اسمه كلام. ما انت عارف أصل الحكاية والرواية..

- أيوه يمكن يقصد شجرة التوت الشرقية اللىّ جنب وابور الطحين هناك.. أصلك بنيت قدامها ياعم أبوالريش.

- يابنى.. دول شوية طوب خُضر.. يادوب كُتّاب من أجل أن يتعلم الأولاد حفظ القرآن وتلاوته.. وقول كده مبادئ القراءة والكتابة.. يعنى ماعملتش حاجه غلط.. لشغل وقت الفراغ فقط.

- بصراحة.. تشكر على ماقمت به.. خدمة لأبناء الكفر وأهله.

طأطأ أبوالريش برأسه، ثم تنفس بعمق ولم يلبث أن أخرج زفيراً مخضباً بالآهة. والأحلام معاً. إذ قال متمنياً:

- بصراحة كانت الأمنية رؤية هذه الأرض فى صورة مأمولة.. تقدر تقول كده مثل صرح جديد يشتمل على وحدة صحية حديثة، ومدرسة بأفنيتها الضرورية لأبنائنا، بجانب مكتبة تخدم جوانب الثقافة، ومسجد

صغير ملحق به قاعة مناسبة لتعليم أولادنا قراءة القرآن وتلاوته بالتنسيق طبعاً مع المسئولين عن محو الأمية لشغل القاعة بأكبر وقت متاح، ومن ثم تحقيق أعظم فائدة.. أليس كذلك ياولدى!

- إنك تبالغ فى الأحلام. ومن أين بالإمكانات التى تحقق ذلك؟

- لاعليك.. إنها مجرد أحلام. أو حتى أوهام. فلتسمها ماشئت!

حاول أن يبتعد به عن تلك التطلعات البعيدة لما عاد به مرة أخرى إلى أصل المشكلة التى يعانيها إذ قال له:

- لكن قل لى ياعم أبو الريش. لمؤاخذة يعنى فى السؤال: ليه حمدان أبواسماعيل عمل كده معاك؟!

- أصله كان بينّمر على المكان دا من زمان.. عاوز يعمل مشروع.

- مشروع..! زى إيه مثلاً!

- سمعت طراطيش كلام.. كان غاوى يعمل كفْتره.. حاجة زى القهوة كده!

- آه.. قصدك «كافتيريا» حديثة.

- أيوه تمام.

ساد الصمت بينهما لحظات، وكانت المسافة إلى المدينة ماتزال ممتدة ولم يمض على حوارهما أكثر من عشر دقائق. لما نظر إلى الساعة بمعصمه. سمع أبو الريش يبتدره قائلاً:

- قل لى ياولدى..

- نعم!

- أظنك عبدالمعبود بن محمود النمساوى.

- تمام ياعم أبوالريش -باسم الله ماشاء الله- ذاكرتك قوية.

- والله ياولدى زمن طويل من العمر. ظهرت أشياء واختفت أخرى. مات ناس واتولد أكثر منهم. الخير زاد بصحيح لكن البركة ضاعت. المعروف والوفاء بين الناس صار شحيحاً والقرش ما عاد له قيمة لكن صاحب المال قعد فوق العلالى وصار يتكلم، والبطل فى عيون الزمن هوّه اللى يجرى وراه ويقدم له التحية -تعظيم سلام- وكأن الحياة صارت بالأرقام... وآه من غدر الزمن ياولدى آه...!!

كان يستمع إليه متملياً نبرات صوته، ويتابع إخراج الحروف عبر مخارج منغومة بالأحاسيس التى تمور بصدره، منغمسة فى عمق الواقع

المتأرجح بين الرؤى والتمني. فعقب متأثراً:

- فعلاً ياعم أبوالريش. نسأل الله اللطف فيما جرت به المقادير.

كانت السيارة تقطع الطريق صوب المدينة. تتوقف بين الحين والآخر ليصعد إليها البعض أو يهبط أحد الذين ينتهى مقصدهم عند محطة بعينها، حتى امتلأت عن آخرها، وانحشر بالممر الطولى لها الكثير ممن لم يحظوا بمقعد خال.. كان الجو حاراً والشمس تتوسط السماء فى الصيف القائظ من أغسطس، وكانت كثرة الأنفاس المتولدة عبر الإزدحام. تزيد الجو اختناقاً مما جعل كلا منهما ينشط فى تجفيف العرق الطافح فوق وجهيهما، أو التململ بين آهة الضيق واستلام الصبر ومن ثم التأنى على مضض.. تملىّ عبدالمعبود الطريق بطرف عينه. صارت السيارة على مشارف المدينة. استجلب نفساً عميقاً تعبيراً عن الارتياح بقرب الوصول، وخلال دقائق بدأ الاكتظاظ ينفرج تدريجياً من العلبة المحشوة بالآدميين. ثم تفرّقت السُبل وانطلق كل إلى مقصده.

كان عبد المعبود يسرع الخطو قاصداً مديرية التربية والتعليم. بُغية استكمال إجراءات عودته للعمل كمدرس بمدرسته السابقة.. وقبل الإعارة إلى سلطنة عُمان طوال أربع سنوات. لم يدر بخلده أن صديق غربته سيلتقى به هناك. ما إن رآه حتى انفرجت بسمة المفاجأة على كليهما، ثم راحا فى عناق وسلام، أعقبه الحديث المقتضب عن الماضى بكل ما يحمله من ذكريات. مكثا فترة بالمديرية ثم خرجا سوياً. حاول كل منهما أن يشد الآخر إلى طريقه كضيف عزيز عليه، لكنهما اتفقا أن يجلسا مؤقتاً عند أول مقهى يصادفهما على أن يحددا الموعد الملائم لتبادل الزيارات فيما بينهما بعد.

جاءهما النادل. طلبا مشروباً مثلجاً. تحدثا فى اليسير عن الماضى ولحظات الحاضر، وكان جل حديثهما عن المستقبل وما يؤمله كل منهما.. لمح عبدالمعبود مجلة ضمن بعض الأوراق مع صديقه فتحى.. إستأذنه للاطلاع السريع. مجرد قراءة المانشتات. لكنه أخذ يقلب صفحاتها فى عجلة. لم يلبث أن توقف أمام تحقيق يدور حول قصة مثيرة وكأنها حلم أو خيال. ما إن أخذ يقرؤها حتى فاضت ملامحه بتعبيرات الدهشة والعجب.!!

كان بين ما تضمنته القصة.. أن رجلا يدعى: حماد فياض أبوالريش.

يُعد من رجال الأعمال المجتهدين بكندا قد توفى. تاركاً ثروة تقدر بالملايين، وكان من بين الوصية الهامة التى تركها. جزء لايستهان به من الثروة قد يصل إلى ثلاثة الملايين من الجنيهات وربما يزيد.. ذلك كله يجب أن يؤول إلى أحد أقاربه بمصر واسمه: حلمى مسعد أبوالريش. شريطة مرور ثلاثة أعوام على الوفاة لأسباب قدّرها صاحب الوصية..!..

نظر إلى صديقه متأملاً، وقد افترت بسمة دهشة على سحنته إذ قال:

- ياسلام على الصدف السعيدة. والحظ الأسعد. دايومك فعلاً حايكون يوم السعد إن شاء الله!

باستغراق بادله الصديق التساؤل:

- فيه إيه.. وإيه اللى حصل فى الدنيا ياترى؟!

- حايحصل كثير.. شئ غير معقول على الإطلاق!!

- ماذا تقصد؟!

تنحنح ثم مدّ إصبعه مشيراً إلى كلمات بعينها، فأعاد قراءتها بصوت مسموع، فلم يفهم صاحبه شيئاً. لكنه بدأ يشرح موضحاً بإسهاب أن المقصود بالثروة المنتظرة. رجل معروف لديه حق المعرفة. كان منذ سويعات بصحبته وعلى وشك أن يتعرض لورطة ربما يكون فى غنىً عنها.. من أجل ذلك فقد أسبغ الله عليه من النعمة واليسر ما يحول بينه وبين الرّذّل الذى يدّعيه. ثم أردف معقباً:

- يبدو بالفعل أنه رجل طيب ويستحق ذلك وإلا ما حدثت تلك المعجزة التى تُمثل نسبة الواحد فى المليون حسب زعمه!

أدرك صديقه أبعاد الخبر المنشور، وما ينطوى عليه الموقف، ومن ثم القصة برمتها. لاحت له فكرة حسبها جهنمية وذات فوائد جمة لا يعدلها شئ البتة..! بسطها أمام عبدالمعبود الذى أخذ يقلبها على كافة الوجوه بميزان الإرهاصات الوجدانية داخل عمق باطنه، حتى قام مستأذناً، ولم ينس أن يستميح صديقه الإذن بالحصول على ذلك العدد من المجلة أو إستعارتها على الأقل، فلم يمانع الصديق تاركاً له الخيار مباركاً الصدفة الطيبة، ولحظات اللقاء الحسن. متمنياً له كل التوفيق.

كان عبدالمعبود يهيم طائفاً نشوان باكتشافه القنبلة التى ستقلب الدنيا رأساً على عقب - ولم لا؟!! وهو صاحب الاكتشاف المعجزة فى

هذا الزمان الذى يحقق الأمنية بنسبة خرافية القياس. متناهية فى هلامية التلاشى.. قد تصل إلى الواحد فى المائة مليون من وجهة نظره!

كان «الأتوبيس» قد أقلع منذ دقائق فلم يلحقه.. انتظر واقفاً حيران. اعتلى الطوار القريب. كان يسير جيئة وذُهُوباً. أكله القلق، ونهشت قلبه اللهفة إلى العودة بسرعة بما ينوء به!.. أسرع إلى المكان الخاص بسيارات الأجرة هناك. لم ينتظر.. قذف بنفسه إلى الداخل وأشار إلى السائق:

- مخصوص ياأسطى.. إلى كفر.. أبوكف.. لو سمحت..!

جاست الأمنيات محلقات، ثم غاصت بأعماق تطلعاته. كبش الوهم من زاد الغرور الذى يطويه. لم يبق غير الوقت حتى تتحقق الأمانى التى طالما حلم بها واشتهاها. لكنها كانت بعيدة المنال بُعد الأرض عن السماء وكأنها خيال فى خيال!!.. لقد ضاعت حرارة الجو من حوله ونسى تعب اليوم. نسى كل شئ عدا شيئاً واحداً.. بيت حلمى أبوالريش.. قصده فى التو. قرع الباب فلم يجب أحد. واصل الطرق مرات حتى خرجت إليه امرأة من الدار المجاورة. نظرت إليه متفحصة ثم قالت:

- فى المستشفى من الصباح. لحقت به ابنته وبصحبتها بعض الجيران من ساعة ليطمئنوا عليه...

قال مدهوشاً:

- كان معى هذا الصباح سليماً معافاً. لاشئ به!

قالت مؤكدة:

- عقب خروجه من المحكمة. تشاجر وحمدان أبو اسماعيل. هرب حمدان وقُبض على أخيه وابن عمِّه اللذين كانا معه.

أصابه شئ من الاضطراب والتلعثم، وبصعوبة حاول أن يعرف اسم المستشفى، فأجابته عدم معرفتها تحديداً. تركها منصرفاً وقد ركبته هواجس شتى. كان يعتقد أن الحظ العاثر يلازمه -يالها من فرحة لم تتم- لكن الإصرار يستحثه على مواصلة السير حتى النهاية وليكن مايكون..!! لن يتسرب إليه الوهن لحظة. فهو الوحيد الذى يعرف السر الدفين، وسيبذل كل ما بوسعه للوصول إلى غايته. نعم فالفرصة لاتأتى مرتين. وهاهى قد أتت.. فليتدبر الأمر وليصبر.. عرج إلى صديقه شعبان الذى كان يعمل مدرساً معه قبل الإعارة، التقى به وفى تحفظ شديد ونبرات مؤكدة أقرب

إلى الهمس مشوبة بالحاح. أفضى إليه بضرورة مصاحبته إلى البندر لأمر هام وسوف يخبره أثناء الطريق بالتفاصيل... كانت علامات الدهشة والحيرة تبدوان على صديقه الذى لم يجد بُداً غير الموافقة لإرضاء صاحبه الذى يعز عليه. ذهبا حيث الباحة التى يركبان منها قرب المقهى. بغية انتظار إحدى السيارات العائدة إلى المدينة. عرفا اسم المستشفى أثناء جلوسهما على المقهى اليتيم الكائن قرب مدخل الكفر، والذى يطل على الطريق الوحيد المرصوف. يلى ذلك الترعة التى شُيِّد فوقها الكوبرى الجديد كمعبر هام يربط الكفر وبعض القرى أو النجوع ببعضها ثم يفضى إلى الطريق المرصوف الموصل إلى المدينة.

كان فرج القرقورى. صاحب المقهى يعرف عن طريق الغادين أو الرائحين معظم الأخبار المتصلة بأهل الكفر أو بعض القرى المجاورة، وكان مُلمّاً بحكايات عن الآباء والأجداد. كان معروفاً كذلك بالنشاط والهمة فى إدارة مقهاه منذ الصباح الباكر وقبل طلوع الشمس. من أجل ذلك كان يذهب عقب صلاة المغرب إلى داره. تاركاً ولده. ياسر لاستكمال بقية الليل مع الزبائن من الرواد الذين يروقهم نظافة المكان ونسيم الهواء الرطب من أثر الماء الذى يرشه صباحاً ومساءً. ناهيك عن المكان الظليل بالأشجار حولهم مما يبعث فى النفس الهدوء والشاعرية.

لم يصارح عبدالمعبود صديقه شعبان بكل شئ غير الرغبة فى الاطمئنان على جاره الحبيب الطيب عم حلمى أبوالريش، ثم ألمح من طرف خفى عن رغبته الاقتران بابنته.. نفيسه.. وبأسرع مما يتصور الصديق. مبرراً ذلك أن الظروف المالية صارت متاحةً بعد العودة من الإعارة، والعمر يمضى.

لقد ذُهل الصديق مما سمع وهو يتساءل بداخله: كيف يتغير عبدالمعبود هكذا. وبتلك السرعة غير المتوقعة..!! أين هيامه بابنة عمه.. روحية طوال الفترة الماضية؟! لقد خطبها وأعد العدة، ولم يعُد ثمة مبرر يدعوه لمثل ذلك التحول المفاجئ. فأسرع مبتدراً عبدالمعبود فى غيظ:

- وابنة عمك التى تنتظر الزفاف قبل افتتاح المدارس كما وعدت! أراك قد أعددت لذلك كل شئ من قبل!!

أطرق ثم حك جبهته بإصبعه وقال:

- الظروف تغيرت. وكل شئ بإرادة الله.

رد بسرعة:

- الظروف كلها فى صالحك، والأحوال على مايرام والحمد لله. إن إرادة الله هى التى تهيئ الطريق بعد اختبارها لنواياك ومتطلباتك! أرجو أن يكون طريقك صحيحاً!

صمت ولم يرد. فأسرع يؤكد له:

- كيف إذن تتخلص من تلك الورطة؟!

أجاب بفتور مشوب بالضيق:

- المصلحة فوق كل اعتبار.

- أية مصلحة تدعيها بعيدة عن الواقع والمنطق، أو الأصل والأعراف!

- سأتدبر كل شئ فى حينه، ولن أدع الأمور تتأزم كما تعتقد.

- أراه الوهم الذى تدّعيه.

- أرجوك أن تفهمنى!

- كيف أفهمك. وأنت لاتفهم نفسك أو حقيقة موقفك على الأقل.

- إنك تأخذنى بالجرم. دون سماع الدفاع الذى أدخره.

- لاشك أنه دفاع واه.

- أنسيت أن العم قد يطمع فى بعض الميراث. ناهيك عن ظروفى المستجدة بعد العودة من الإعارة التى تشحذ همته فى الطمع.

- بالله عليك. أهذا كلام يقال الآن. وفى ذلك التوقيت!!

- إذا أراد الله الشمل أن يجتمع، والنفوس أن تصفو، والقلوب أن تتآلف. أليس كل ذلك يُعد الفرصة المناسبة لإعادة المياه إلى مجاريها الطبيعية؟!

- جئت بك كصديق معين على الشدائد.

- وناصح مخلص وأمين. ذلك أهم حقوق الصديق على صديقه.

ساد الصمت بينهما لحظات. فقال شعبان بصوت خفيض، ونبرة آسية:

- هل رأيت نفيسة من قبل!؟

هز رأسه وأجاب:

- مرتين أو ثلاثاً.

- فقط!

- مش فاهم.. تقصد إيه!!

- ألم تلتقيا أو تتحدثا طويلاً بما يدعم ويؤكد التفاهم فيما بينكما. حتى يصير إلى التواصل المرجو الذى يباركه الأهلون؟

- كل شئ بأوانه.

- ماهذا الهراء ياصاحبى!!

- ألم تلحظ أنك تسبُّنى!

- سمّه ماشئت. ولا تنسى أن المقارنة بين نفيسة.. وروحية.. ستكون فى النهايةَ ضد صالحك. على الأقل فى درجة الجمال بينهما. لن يختلف اثنان أنك تركت التين وذهبت إلى الجميز. نسيت التفاح وسعيت إلى ماهو دونه. ضاعت منك الحقيقة لما احتضنت الوهم.

- كفى.. كفى.

- عن إذنك!

- مع السلامة.

******

افترقا قبل أن يصحبه إلى المستشفى. كان يحاول أن يطمس طنين الصراع بداخله، ويُغرق كل ما جُبل عليه طوال حياته فى مستنقع النفس الأمّارة. كان التساؤل الذى يُلح عليه بغتة:

- كيف تغيرت هكذا وبسرعة..؟! ولماذا تملكتنى تلك النوازع دون غيرها؟! ثم يتبع ذلك.. أصواباً أم خطأ أن أرسم مستقبلى وفق متطلبات الحياة العصرية بما تحتاجه وما يترنم به المتسابقون فى حلبتها سعياً إلى النعيم المزمع وفق ذكائهم!!

ثم لايلبث أن يتابع إرهاصات داخله:

- المستقبل كفيل باصلاح كل شئ. المهم عندى الاطمئنان عمّا أصاب المليونير المنتظر أمام المحكمة صباح اليوم.. علّ الإصابة بسيطة حتى تمهل الروح داخل الجسد.. كى يتحقق المراد.. آه وألف آه يوم أصير الزوج المنتظر لصاحبة العصمة الشهباء! تلك الوريث الوحيد لأبيها المبجل المرحوم المليونير!.. كان يشعر أن الصراع يشتد متصاعداً بين الشد والجذب فى عمق كافة التناقضات. لدرجة أنه بدأ يحس دبيب الصداع يتصاعد رويداً، حتى أوشك أن يفجِّر رأسه!

أثنى على الظرف الطارئ. إذ لمح سيارة تقترب. أسرع إليها فى

عجلة. انحشر مع نفر غير قليل. انطلقت بهم صوب المدينة. بعد وقت تجاوز الساعة بقليل. كان يخطو خطواته إلى السرير الذى يرقد فوقه حلمى أبوالريش.. وجده بصحبة رجلين من أهل الكفر. كانا قد وصلا قبله بقليل. ألقى بالتحية ثم جلس يتلفت حوله ولم يلبث أن رأى المصاب يعتدل من نومته ويسلم عليه بيسراه ثم يقول:

- الحمد لله. الإصابة بسيطة. مجرد كم غرزة بمؤخرة الرأس وبعض الكدمات. مع اشتباه كسر ستظهره الأشعة سليماً إن شاء الله.

قال أحد الرجلين:

- حمداً لله على السلامة.

أجاب المصاب:

- شكراً لكم جميعاً. وعلى العموم قدّر ولطف. سامحه الله. طول عمره. «أعجر وغشيم» لايتفاهم.

قال الآخر:

- عرفنا كل شئ. كان البادئ بالعدوان فعلاً.

فأسرع عبدالمعبود يقول:

- المهم ربنا بيحبك ياعم أبوالريش. بيحبك جداً. إلى أبعد مما تتصور.. أى والله!

قال حلمى أبوالريش:

- الحمد لله. الحمد لله..

امتد حديثهم فشمل أموراً شتى مما يحوط حياتهم ويؤثر فيها تأثيراً مباشراً من قريب أو بعيد. كان الحوار وكأنه مباراة فى الفصاحة وعمق الفهم لواقع ابن البلد وسط معترك الحياة.

أقبلت الممرضة وبصحبتها نفيسة التى ابتدرت أباها قائلة:

- جئتك بها لتطمئن على الجرح برأسك، ثم تعطيك الحقنة فى موعدها.

استأذن الرجلان فى الانصراف، وظل عبدالمعبود واقفاً حتى قامت الممرضة بمهمتها ثم انصرفت.

- اتفضل يابنى استرح.

قالها حلمى أبوالريش. فتوجه عبدالمعبود إلى أقرب مقعد، ولما رفع رأسه

ناحية النافذة المفتوحة. طالعت عيناه وجه نفيسة وهى تقف بجوارها. تملت العينان تقاطيع الوجه للمرة الأولى، ثم سرحت نحو مناطق أخرى مستعرضة كوامن الفتنة أو الإثارة. لكنها اصطدمت بما يؤكد أن البئر قد تجف فى أية لحظة، فلا يصير ثمة أثر لماء أو حتى بترول بها!.. انزعج عبدالمعبود للوهلة الأولى، وعادت روحه بسرعة البرق تحتضن طيف عشقها الأول. فتراه كنزاً لايجوز التفريط فيه تحت أية مسميات عصرية.. أحس بالغبن الذى كاد أن يفتعله منذ تملكته الوساوس الشيطانية التى جعلته يعاود التساؤل من جديد:

- هل ضعفت النفس فى إطار عاطفتها الجياشة حتى كادت تهزمه. أم أن الضمير بدافع العقل الراسخ قد استيقظ فجأة عند الاصطدام بالواقع المؤلم والمؤثر فى ذات التوقيت..!

وجد الحيرة تغلفه، والقلق يتملكه، والاختناق يعصره. لابد أن ينفض عن كاهله كل تلك البواعث. لم يلبث أن مال هامساً بالقرب من أذن حلمى أبو الريش. ثم قال فى بسمة ودودة:

- عندى لك أخبار -باسم الله ماشاء الله- فى غاية الأهمية!

صرف حلمى أبوالريش ابنته بطريقة لبقة لما حدجها بنظرة وكأنه يطلب منها أن تتركهما وحدهما، ثم توجه على الفور ناحية عبد المعبود قائلاً:

- خير ياولدى.

- تقدر تقول وأنت مطمئن. «بعد الصبر ماطال. حققنا الآمال».

- إيه معناه ده.. شايفك مبسوط خالص!

- آخر انبساط. جئتك بالهناء الذى لايخطر لك على بال. طاقة القدر مفتوحة أمامك. اغترف منها كيفما شئت، بل الكنز بين يديك. ليس حلماً. لكنه حقيقة!

- مش فاهم حاجة أبداً. أنت بتقول ألغاز ولا إيه!!

- شوف ياعم أبوالريش. سأكون «دوغرى» والرزق على الله. مارأيك فى ثلاثة ملايين من الجنيهات. ومن يدرى ربما أكثر!

نظر حلمى أبوالريش ناحية محدثه متملياً مبهوتاً. لايدرى مما يقوله عبدالمعبود شيئاً، ولايعرف مقصده. ظن للوهلة الأولى خبل محدثه وقد تكون هذه الكلمات التى تفوّه بها أول مظاهره، فلم يلبث أن صمت ولم يرد. فأعاد عبدالمعبود التساؤل فى شئ من الجديّة والتأكيد:

- أما سمعتني. أقول مارأيك في ثلاثة ملايين جنيه. تصبح ملكاً لك. يعني حلال بلال عليك!

في استغراب ممتزج بالخوف واللهفة يرد:

- أرجوك لاتمزح. أحسبك قد جئت اليوم للمواساة أو الواجب، وليس المزاح أو السخرية هكذا!

- أبداً.. لست أمزح -أقسم على ذلك- إنني أقول الجد كل الجد ولا أعرف الهزل.

- ماذا تريد أن تقول بوضوح كامل!؟

- بماذا تعدني إن جعلك الله مليونيراً على يديّ إن شاء الله؟!

ابتسم مشفقاً وهو مايزال في حالة استغراب:

- لك كل ماتطلب!

- سيصير لك ثلاثة ملايين وربما أكثر. من يدري؟!

- كيف..؟! عاوز تلعب بعقلي. كفاية حرام عليك. صحيح أنا كبير في السن. لكنني مازلت عاقلاً، وأملك فهماً وذاكرة لابأس بهما ياولدي!

- وبعدين معاك ياعم أبو الريش. هل أقسم لك للمرة الثانية؟! ثق بي تماماً، وستجد مايسرك حتماً. المهم الآن. وأنت بكامل قواك العقلية كما تقول وتؤكد. عليك أن تمنحني شيكاً مقبول الدفع بمبلغ مائة ألف جنيه. أظنه مبلغاً بسيطاً مما سيأتيك قطعاً. أليس كذلك؟

- عدت ياولدي إلى الهزل. لا حول ولا قوة إلا بالله!

- أنا معك.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. لكن ما أقوله لك صحيح مائة بالمائة وسأثبت لك من الآن فصاعداً.

أسرع بإخراج ورقة وقلماً. أخذ يكتب الشيك المطلوب محدداً المبلغ الذي ذكره، ثم مال على حلمي أبو الريش وقال في ثقة وخيلاء:

- امض هنا. العمولة المطلوبة منك.

- وبعدين ياولدي!!

- سأخبرك بأدق التفاصيل حتى تطمئن وتسترح بالاً.

امتثل على مضض وهو غير مصدق وقد طغى عليه حب الاستطلاع والشوق الزائدين لمعرفة كنه الحقيقة!

كان يستمع مدهوشاً غير مصدق، حتى أخرج إليه المجلة ذات التحقيق المطلوب

من طيات ثيابه وبسطها أمام عينيه لبضع لحظات، ثم أعادها كما كانت... فغر فاه ولم ينطق بكلمة بعدها، ثم التمعت عيناه ببريق غريب وكأنه صار أحولاً.

لما حاز الشيك المطلوب بالقيمة التى حددها. أحسَّ أنه حقق انتصاراً من أيسر الطرق وبلا مشقة وكأن كابوساً ثقيلاً من الهموم بدأ ينداح عن كاهله. خاصة فيما يتعلق بنفيسة واتقائه الورطة التى كاد أن يغرق فى خضمها. لكل ذلك كانت فرحته طاغية. حاول أن يكتمها قدر استطاعته لما مال على المليونير المنتظر وقال له:

- أرجوك. المثل يقول.. «دارى على شمعتك» ويهمنا أن يشمل كل شئ طى الكتمان. على الأقل الآن! وخوفاً من القيل والقال. ناهيك عن الحسد ومكر الرجال. وعلى كل حال سيكون تحركنا قدر الحاجة تلافياً للعقبات، وحتى نحصُل على ما نُريد بدون نقصان. أليس كذلك..؟

لم يُصغ قدر إصغائه لما يستمع إليه الآن، ثم أشار هامساً ومقترباً من أذن عبدالمعبود فأسرّه قائلاً:

- لكن عندى مشكلة بسيطة خالص!

- ماهى؟!

- ابنتى...

- مابها؟!

لكزه بخفة ثم غمز له بطرف عينه وقال:

- اخفض صوتك. من حسن الحظ أنها لم تعرف بعد!

- وما الضير أن تعرف حتى تفرح كثيراً؟!

- آه من تفرح كثيراً. أرجوك لا داع لذلك.

- ولماذا؟!

- من فضلك أنا الأدرى بمصلحة ابنتى. ومن أجل ذلك يجب أن تعلم أن الخبر المفاجئ مع الفرح الشديد الذى تدعيه سيقضى عليها فى التو واللحظة.

- أنا لا أفهمك!

- قلت لك أنا الأدرى بها. فهى صاحبة قلب رهيف وضعيف، أو قل صاحبة قلب متعب ومريض، كنت بصدد السعى إلى تغيير بعض صمامات قلبها حسب نصائح الأطباء. لكننى كنت أرجئ ذلك بسبب قصر ذات اليد.

أما الآن فالوضع قد تغير تماماً، وكما تعلم فهى ابنتى الوحيدة التى أود لها السعادة والرفاهية فى المستقبل. بعد المنّة التى هبطت علينا من السماء. وقد سمعت أن الأخبار المفاجئة سواء أكانت مفرحة أم محزنة ربما تضر بها.

- الأعمار بيد الله ياعم أبوالريش. وعلى كل حال لك ماتريد. وألف سلامة لها.

- سأعتبر ذلك عهداً فيما بيننا، وحتى نجد الحلّ الأمثل. كى تعرف كل شئ وبالتدريج. أفهمت..؟!

هز رأسه بالموافقة، ثم تصافحا بشدة وهما يقرءان الفاتحة.. أقبلت ابنته وهما يتصافحان، وقفت ساكنة دون أن تنطق كلمة، لم يفته أن يلقى عليها بالتحية دون أن يُعيرها انتباهاً، ثم أولاها ظهره متجهاً ناحية الباب.. بمجرد أن خرج. اعتدل فوق السرير. ملأت أساريره البهجة. أحس أنه عاد صحيحاً معافاً. بل أحسن أنه رجع أكثر من عشرين سنة إلى الوراء. عاد وكأنه الشباب من جديد. يتطلع إليه بملء روحه وكيانه وكافة الأحاسيس لما قال لابنته:

- سأغادر المستشفى الآن!

- لابد من انتظار الطبيب. هو الذى يقرر ما تستدعيه حالتك.

- حالتى «بُمبْ» والحمد لله.

- لكن!

- لكن ماذا؟!

- أراك تغيرت فجأة. لم تكن قلقاً على الخروج هكذا وبسرعة. خاصة قبل زيارة الضيف السابق!

- ليس بضيف. إنه ابن البلد. وجار عزيز علينا.

صمت لحظات ثم واصل:

- سيكون فأله حسناً وخيراً دواماً علينا إن شاء الله. ألا تعرفينه..!

وقبل أن يستكمل. نظرت إلى أبيها نظرة ذات مغزى وتساؤل إذ قالت:

- أعرف. إنه عبدالمعبود بن محمود النمساوى. المدرس العائد من الإعارة.

توقفت فجأة ثم استدركت:

- أظنه سيتزوج ابنة عمه.. روحية خلال أيام.
ألجمت الكلمات أباها، وقد أصابه شئ من الإرتباك لكنه أسرع يقول:
- على كل حال. اطمئنى. ستكونين أسعد بنات الكفر إن شاء الله. ستؤكد لك الأيام ذلك.
- لايهمنى الآن غير خروجك بالسلامة.
- ربنا يسهل كل شئ.. «الصبر مفتاح الفرج».
- هل هناك من شئ؟!
- أبداً. كل ما أستطيع قوله الآن. أن كل شئ يسير فى الوضع الصحيح. يبدو أن الحظ السعيد سيلحقنا، فأسعد وتسعدين معى.
لم تع الإبنة مقصده، ولم تستطع أن تضع النقاط فوق حروف كلماته. وحين أقبل الطبيب تصحبه حالة مفاجئة من جراء حادثة لشاب فى مقتبل العمر. أجريت له عملية استئصال الطحال مما استدعى تواجد الطبيب لفترة. تمكن خلالها حلمى أبوالريش أن يعرض -مُلحاً- الرغبة فى سرعة مغادرة المستشفى، مبيراً قدرته على الحركة، ومؤكداً سلامته بشتى الطرق!.. ابتسم الطبيب ثم وعده وهو يعدو بسرعة. النظر فى أمره صباحاً، وقد يسمح له بالمغادرة. طالما إصاباته لاتشكل خطراً أو مضاعفات.

*****

لم يستطع عبدالمعبود النمساوى أن يربط لسانه لما وصل إلى الكفر. لكنه التقى بصديقه الناصح. معتذراً له عما بدر بحقه أثناء جلستهما بالمقهى، ومعترفاً بصواب رأيه فيما دار بينهما من حوار آنذاك، ثم أتبع ذلك بالقنبلة التى فجّرها إذ أفشى السرّ ولم يتوان عن إخراج الشيك الموقع بمبلغ المائة ألف جنيه ليريه صاحبه!. لم يمض غير يومين على الأكثر حتى عرف أبناء الكفر ومعظم القاطنين به. نبأ الملايين الثلاثة التى هبطت على حلمى أبو الريش من قبَل أحد أقربائه الأغنياء بالخارج. كانوا يضربون كفاً بكف ويتهامسون:
- الدنيا حظوظ. أى والله.. «يلبّس الحلق لمن ليس له أذن» هيّه دى ضربة الحظ اللى بيقولوا عليها فعلاً.. فى غمضة عين صار أغنى واحد فى الكفر كُلاّته.. أغنى مين ياعم..! أين القريب الغنى؟! لم نسمع طوال حياتنا أن له قريباً غنياً على الإطلاق. دا حايبقى المليونير أبوالريش.. صح! وقال إيه.. صاحب ثلاثة أرانب.. ياسلام.. شوفوا الدنيا ياعالم...

إلى آخر ما قيل من لغط وثرثرة!

ورغم كل ما قيل وقتذاك. فإن كل ذلك لايهم حلمى أبوالريش فى قليل أو كثير. كان الأهم بالطبع عنده مدى التغيير الذى بدأ يطرأ فى مجمل حياته. لقد أدهشته الحياة بذاتها، وذلك بما حملته على كفيها، وكأنها تضحك أمام عينيه مبتسمة وقائلة له:

- تفضل.. «شُبيك لبيك.. أنا ملك إيديك..» الدنيا خلاص.. ضحكت حواليك!

تلك كانت رؤيته وأحاسيسه اللتان يراهما أو يلمسهما، فقد كان أصحاب الحوانيت بالكفر يتقربون إليه بشتى الطرق.. البدال يناديه مرحباً ومهللاً، ثم يشد على يديه داعياً إياه الجلوس بالمتجر أو أمامه. حسبما يتراءى له. مقدماً له المشروب البارد يعقب ذلك القهوة المضبوطة أو الشاى. وقبل المغادرة تكون الكرتونة قد امتلأت بشتى السلع التي يحملها أحد المتطوعين من الرواد الذين يقع اختيار البدال على أحدهم وهو على ثقة أنه لن يخذله. ثم لايسعه بعد ذلك غير التسجيل بالدفتر الخاص وكله على الحساب. وكم كانت أمنيته أن يصل الديْن إلى مبلغ مناسب.

وكان الجزار أو بائع الخضر وكل من يمت بصلة التعامل مع المليونير المنتظر. يود ويتمنى من أعماق القلب أن ينال الرضا السامى لديه. كما كانوا يسيرون على نهج البدال فى التعامل وإن كان البعض يبالغ بعض الشئ فى قيمة السلعة التى تؤول إلى المليونير.

كانوا يعللون أنفسهم بالقول المأثور لديهم، والذى حفظوه عن ظهر قلب.. «حتى ينوبك من الحب جانب.. ..». حتى صاحب المقهى اليتيم بالكفر. صار كلما رأى (أبوالريش) أسرع إليه مرحباً بمودة مصحوبة بعبارات التكريم والتبجيل، ثم يختار له ركناً قصيّاً تحت شجرة بعينها ليجلس مستمتعاً بفنجان القهوة أو عصير الليمون الذى يُعده خصيصاً له.. لكن المليونير المنتظر لم يجئ تلك المرة بمفرده كما اعتاد ذلك. كان بصحبته كل من: عبدالمعبود النمساوى، ونصحى زكى الدواغرى أحد أبناء القرية المعروفين بالسعى الحثيث والاجتهاد بشتى الطرق نحو جمع المال عن طريق التجارة. كان يتاجر فى كل شئ يختص باحتياجات الكفر أو بعض القرى المجاورة، وكان يأتى بالبهائم من سوق المدينة، ثم يقوم بتربيتها أو علف بعضها لتعود عليه بالربح الوفير بعد بيعها للراغبين وفق ظروف يراها

مناسبة، وكان يبيع كافة أنواع الغلال أو الأعلاف فى متجره الذى أنشأه فى داره التى هيأها لذلك، إضافة لبعض أنواع الأسمدة والكيماويات الخاصة بالزراعة. ناهيك عن منحل خاص يجود عليه بالكثير. كان معروفاً بمشيته المتبخترة رغم ربعته الواضحة، وأنفه الأفطس القابعة فوق شفتيه الغليظتين، وكرشه البارز أمامه وكأنه البطيخة المنتقاة بحجمها المميّز!

شكل الثلاثة نصف دائرة بمقاعدهم وجلسوا يتحدثون بصوت منخفض أقرب إلى الهمس. بعيون متفحصة وموجهة إلى عبدالمعبود، وبصوت مؤثر قال حلمى أبوالريش:

- شوف ياعبدالمعبود

- نعم..!

- من حسن الحظ أن يقع اختيارنا على ابن البلد، وابن الأصول.

ابتسم المعلم نصحى الدواغرى متنحنحاً. ثم قال بثقة مشوبة بالنشوى وهو يمسك ياقة جلبابه:

- شكراً. أنا تحت أمركما. ومستعد لأية خدمة.

ثم لزم الصمت. تاركاً الفرصة للسماع.

كان حواراً بدأه حلمى أبوالريش. مذكراً عبدالمعبود العهد الذى قطعاه بخصوص ابنته نفيسة.. ثم توجهاً إلى المعلم نصحى يخبرانه كيفية التغلب على رهافة وضعف قلبها عند سماع الخبر السار والمفاجئ بالنسبة لها.

لم يفهم نصحى شيئاً فى بادئ الأمر. لكن الأمور بدأت تتضح بالتدريج لما اطلع على كافة التفاصيل. وحينذاك بادرهم بقوله:

- وما المطلوب الآن..؟!

قال حلمى أبوالريش:

- أملنا كبير فى المساعدة. نظير المستند أو الشيك أيهما تراه مناسباً. كى تحفظ حقك كاملا، حتى يتيسر إجراء العملية الخاصة بصمام قلب ابنتى!

بادر عبدالمعبود بقوله:

- كان عم أبوالريش على حق لما وقع اختياره عليك. لفك تلك المعضلة التى يعيشها مع ابنته.. هيه.. مارأيك!!

فرك نصحى يديه والتزم الصمت لحظات. كان يفكر وبسرعة. حاول أن يزن الموقف ويحسبها بطريقته.. ثم قال:

- وكم المبلغ المطلوب.. ياترى؟!

قال حلمى أبوالريش فى شئ من الخجل:

- ماتراه مناسباً.. ياولدى.. فى مثل تلك الظروف الصعبة.

عقب عبدالمعبود وكأنه يدرك إمكانات المعلم نصحى:

- يعنى.. حوالى عشرة آلاف.

قال المعلم نصحى فى دهشة:

- ياه. دا مبلغ كبير بالنسبة لى على الأقل!

قال عبد المعبود مداعباً:

- لا كبير ولا حاجة. المهم استعدادك الوقوف بجانب المليونير المنتظر.. ولا إيه!

سكت وهرش برأسه ولم يلبث أن قال:

- أريد بعض الوقت.

ثم توجه إلى حلمى أبوالريش بقوله:

- ثلاثة أيام فقط ويكون الرد جاهزاً.

أجابه حلمى أبوالريش فى خضوع واستسلام:

- لا مانع ياولدى. لك هذا. وشكراً على كل حال.

ثم انصرفوا على أن يلتقوا بعد الأيام الثلاثة بذات المكان وفى نفس الموعد.. لم ينم نصحى الدواغرى ليلته تلك. كان مسهداً. أخذ يحسبها جيداً حتى اهتدى إلى رأى حسبه صواباً لا بديل عنه. لقد جاءته الفرصة المواتية. قد يملك كل شئ فيما بعد! شريطة قبول أبوالريش أن يزوجه ابنته، وما الضير فى ذلك والإبنة لا إخوة لها ولا أخوات ينافسونها ميراث المستقبل، وليس هناك من وريث آخر ينغص الحياة. إن ظروفها الصحية ربما تقرب يوم إمتلاكه ناصية الأمنيات كلها. خاصة أن أباها هو الآخر قد بلغ من العُمر عتيا. يالها من صدف سعيدة. وأية صدف أو ظروف مهيأة! إذن فليعد العدة من الآن، ولا ضير من التضحية بمبلغ قد يعود عليه بالملايين. إنها صفقة رابحة، فالغنيمة بهذا الشكل ستؤول إليه وحده لاريب.. من يدرى..!!

أما بخصوص زوجه التى مازالت بعصمته فلها أن تتحمل مؤقتاً عبء

الصعب، وسوف يبذل غاية جهده لاقناعها بكل شئ فى حينه، ولابد لها أن تمتثل حتى لايضعها أمام الأمر الواقع. هكذا قرر وعقد العزم..!

فى الموعد المحدد والمنتظر. التقى الثلاثة. فبادر حلمى أبوالريش متوجهاً بالحديث إلى المعلم نصحى:

- قبل أى شئ أود الاطمئنان على ابنتى. هيه. ماذا قررت..!؟ أتعشم كل خير من جانبك!

فرد على الفور:

- كل خير إن شاء الله.

- عال.. الحمد لله.

ثم أخذ نصحى يتحدث عن متاعبه ومعاناته الشخصية فى البيت مع زوجه وأولاده. مبدياً التأفف من العيش بظلها بقية عمره. لذا فإنه يفكر منذ فترة بجدية واهتمام رغبة الاقتران بمن يراها مناسبة له، ومريحة لأعصابه المكدودة. ظل يتحدث بإسهاب حتى أوقفه حلمى أبوالريش بقوله:

- مالنا الآن وتلك المشكلة التى تخصك! نحن الآن بصدد المشكلة الأهم!

- بصراحة ياعم حلمى. أرجو ألا تذهب بفكرك إلى بعيد.. قد تظن استغلالى الظروف أو ما شابه ذلك.

- ماذا تقصد ياولدى؟!

- باختصار شديد. هل عندك مانع أن تقبل مبدئياً على الأقل قبول زواجى من ابنتك المصونة.. الآنسة نفيسة؟

أجابه مدهوشاً:

- هكذا وبسرعة. وبلا مقدمات!!

- أى مقدمات تقصد؟ إننى أمد يدى إليك وعلى سنة الله ورسوله، والشرع لايمانع فى ذلك.

- لن أدخل معك الآن فى أية تفاصيل أو حوارات. لكنك بحق فاجأتنى ياولدى..!!

- ليست مفاجأة. المهم أن أعرف رأيك، كما أننى لست متعجلاً الرد. سأعطيك أسبوعاً للتفكير على مهل فيما عرضته عليك. أما بخصوص

الزوجة الأخرى. اطمئن جداً.. لا تحمل لها همّاً، فقد أعددت لكل شئ. ستسير الأمور بلا أدنى عوائق، وسأخصص لكل منهما بيتاً، ولن أقصر تجاه أى منهما فالأحوال مُيسرة كما تعلم.

ثم ابتسم مُردفاً:

، وستكون ابنتك الجديدة بالطبع ذات ميزات خاصة. سيشعر بها الجميع وأنت على رأسهم بلا أدنى شك..!

- أترْهن المساعدة مقابل الزواج؟!

- قلت من قبل أرجو ألاّ يذهب تفكيرك بعيداً هكذا.. ليس لى من مطمع غير تحقيق أمنية فكرت فيها قبل أن أراك، وأظنها حقاً لا مرية فيها. وسوف تكون ابنتك فى رعايتى، وسأكون خير معين لها وفى نفس الوقت تحت أمرها فى كل ما تطلب.

- ولماذا.. ابنتي بالذات؟!

- وهل ثمة ما يُعيبنى لا سمح الله؟!

- لا أقصد..!

- توكل على الله. فلا تُعقِّد الأمور.

- تعلم أنها فى حاجة شديدة إلى العلاج أولاً، وبعد أن نطمئن سوف نفكر فى طلبك هذا!!

- المهم أن نتفق. وسوف أنتظر ردك النهائى خلال الفترة التى تراها مناسبة.

كان عبدالمعبود يهز رأسه طوال الحديث مستمعاً، ولم يلبث أن ابتسم بخبث ثم قال موجهاً حديثه إلى المعلم نصحى:

- إذن فأنت موافق على المبلغ المذكور من حيث المبدأ؟

أجابه ببرود واضح، ونظرة مشوبة بالتهكم:

- وبلا مستندٍ أو شيك منتظر كما فعلت. بعد موافقة عم حلمى بالطبع..!

تبادل الثلاثة الأحاديث فيما بينهم. وكان كل منهم يفهم الآخر حق الفهم، رغم ما ينطوى عليه الظاهر من إرهاصات ورؤى تطوف حول الأحلام التى يعيشونها محتضنين فى سراديبها كل أوهامهم التى يحسبونها رجاءً لأمنيات مستقبلية. وقبل أن يفترقوا. احتضن نصحى

ذلك الواعد بكل معانى الغنى، ثم همس بأذنه وبصوت ودود:

– سأعمل كل مابوسعى. اطمئن. لاتحمل للدنيا همّاً. سأكون جاهزاً وقتما تريد.

******

صار عبدالمعبود والمعلم نصحى صديقين حميمين لايفترقان، بينما انفرد المعلم نصحى بزياراته المتكررة إلى دار المليونير المنتظر، بعد أن أشيعت أخبار خطبته إلى ابنته الوحيدة: «نفيسة» فمن قائل: بزواجها منه بعد عودتها من سفرها الطارئ إلى الخارج لمقابلة أهم الأقارب هناك.. ومن قائل: أن المعلم نصحى قد كتب لها نصف مايملك بعد شد وجذب مع أبيها... إلى آخر ما قيل آنذاك!!

ورغم كل مظاهر التبجيل التى عاشها المليونير المنتظر فى تلك الآونة. إلا أن ثمة عداوات قائمة على شاطئ حياة الكَفْر، وقد أخذت تتجمع إثر التنازع بين حمدان أبو اسماعيل الذى ضم إلى جانبه أبناء عمومته، وبعض نفر من عائلة الدواغرية التى ينتمى إليها. وهم المعروفين بالشدة والقسوة من جهة والكثرة العددية من جهة أخرى. إلى جانب السيطرة والمظهرية التى يُغلّفُها التعالى والغرور. بينما فى الجانب الآخر يقف المليونير المنتظر وهو أحد رجالات عائلة.. البعايضة المعدودين كباراً مع نفر آخرين من هنا أو هناك وهم يسعون لإرضائه وإن كان معظمهم يظهر التعاطف فى الخفاء أملاً فى مِنَّته المستقبلية. يتقدمهم عبدالمعبود، والصهر المنتظر. المعلم نصحى الدواغرى.

أخذت الاحتكاكات بين العائلتين تتصاعد تدريجياً كنار تسرى ببطء شديد فى الهشيم المبلل بالماء. لكن يبدو أن الهشيم صار جافاً، والهواء استيقظ فتيّاً نشطاً، لما أخذت الرياح تحركه منطلقة به فوق سمائهما.

لقد قُطعت الشعرة التى كانت تومض بصيصاً من الأمان بين العائلتين، لما انطلقت ظهر يوم مكفهر. بقرة محروس الحداد. ناحية غيط عبدالحفيظ الدواغرى فأكلت بعض أعواد الذرة. فما كان من ابن الدواغرية إلا أن قام بشومته الضخمة يضرب البقرة حتى صارت كسيحة على رأس الغيط وتكومت، فبرز وليدها قبل أن يكتمل نموه، ولم يُفلح غير الجزار الذى أسرع نحوها قبل أن تلفظ الأنفاس!

استغل حمدان أبواسماعيل الدواغرى الفرصة ليشعل الموقف. مطالباً

بوقف -البعايضة- عند حدِّهم قبل أن يستفحل أمرهم بظهور مليونيرهم القادم، والحل يكمن فى هدم ما يدعيه مكاناً لتحفيظ القرآن لأبناء قريتهم، والإسراع ببناء.. «كافتيريا» على أحدث طراز. لايؤمها غير أبناء الدواغرية فى الغالب الأعم. أو إقامة ناد يكون متنفساً لأبنائهم. أو اقتراح ما يعود عليهم بالفائدة حتى يقرروه فيما بينهم ويرضوا عنه.

لكن البعض قاطعه بحجة أن الأرض ليست محددة الملكية لأحد، ومن الجائز بل المحتم أن تشتعل الشكاوى، وتتدخل الجهات المسئولة بما لا يفيدهم فى النهاية. ومن الأجدى والأجدر العمل على تحريك المجلس المحلى، وبعض الجهات الأخرى. بُغية تحقيق ما يهدفون إليه. خاصة أن عائلتهم الكبرى ذات هيمنة، وبعض أعضاء المجلس يؤيدونهم. بل إن أحدهم ينتمى إليهم ومن الأفضل بحث أنسب الطرق للوصول إلى كافة الجهات بما يحقق لهم السيطرة المؤكدة فى النهاية.

استحسن الجميع التخطيط لذلك الاقتراح الأخير، ومن ثم الاقتراح بالموافقة عليه من جميع الدواغر الموجودين بالاجتماع.

وهناك على الجانب الآخر. كان رجالات البعايضة يلوذون بصمتهم المؤقت الكظيم، وهم يقلّبون الموقف وما حدث أمام أعينهم، ويبحثون كيفية الرد المناسب.

لم يمض غير يومين حتى فوجئ أهل الكفر باشتعال الحريق بالجهة الغربية من دار عبدالحفيظ الدواغرى. أتى الحريق على حوش البهائم، فأكلت النار الجاموسة والحمارة والشاة وثلاث عنزات مع صغارها. كما أكلت النار قلب عبدالحفيظ الذى أقسم بأغلظ الأيمان لأنتقمّن شر انتقام!!

صارت الحرب سجالاً بين العائلتين، وإن كانت الغلبة الظاهرية للدواغرية. كما أن معظم تحركاتهم كانت علنية يشوبها الطنطنة والافتراء. لم يكن يمر أسبوع بدون كارثة هنا أو هناك مما أحدث مشقة وعناء لدى الطرفين، وعلى وجه الخصوص عند البعايضة.. كل ذلك نشر قلقاً واضطراباً لدى جميع الأطراف. حتى أنهكت الخسائر الجسيمة فى الزرع والضرع.. البعايضة وأسبغت عليهم نوعاً من الحصار لايُطاق - أوشك أن يشل حياتهم- لدرجة أن أحداً منهم لايستطيع أن يذهب إلى البندر بمفرده خشية الانفراد به أو قتله بعد أن أُتلفت معظم زروعهم، واحترقت بعض أجرانهم.

لقد تدخل المركز بقوات من الشرطة أكثر من مرة بدون أن يحسم النزاع حسماً نهائياً. كانت النيرانَ تخمد تحت الرماد، ثم لاتلبث أن تشتعل من جديد إثر معركة حامية الوطيس بينهما -ورغم كل ذلك- كان اللطف من الله واضحاً، فلم يسقط قتيل واحد. لكن الإصابات كانت متعددة بين الطرفين. لدرجة أن المعركة الأخيرة بينهما أسفرت عن سبعة من المصابين. منهم ثلاثة دواغرية، والباقون بعايضة...

لم تجد أية محاولات للصلح بينهما، كان ثمة بعض الخبثاء الذين يحلو لهم أن يصيدوا فى الماء العكر، ولا تصفو الحياة أمام عيونهم إلا فى عتمة النكد وتنغيص الحياة على الآخرين.

مضى على تلك الأحداث المتفاقمة المؤسفة قرابة العام، وكان نصحى ابن الدواغرية يشعر بمرارة المحنة القائمة وكأنه بين نارين. كلاهما أشد قسوة من الأخرى. فالآمال والطموحات التى بناها قصراً منيفاً توشك أن تتهدم وتذروها رياح الأحداث القاتمة، لما كانت العائلة تريده الإنضمام علناً فى حربهم ضد منافسيهم من رجالات البعايضة، وعلى وجه الخصوص مليونيرهم المنتظر آنذاك! لم يجد بُداً غير الهروب مؤقتاً إلى المدينة لحين تهدئة الأحوال، وكان بين الحين والآخر يبعث برسالة مع أمين خاص إلى صهره المنتظر، موحيّاً إليه الحياد الكامل، ومبصراً إياه التحمل والصبر لحين انكشاف الغمة التى ألمّت بهم جميعاً. مظهراً سعيه الحثيث إلى حل المشكلة فى أسرع وقت.

عقب آخر رسالة بعث بها. قرر أن يكون عملياً، ولابد أن يثبت أهميته. فالأحوال صارت لاتسر أحداً، والركود بدأ يعم وينتشر. خاصة فيما يتعلق بمصالحه الشخصية وتجارته هناك. لابد أن يفعل شيئاً حتى يوقف ذلك النزيف المتغلغل فى عمق حياتهم ومن ثم يقضى على العداوة والبغضاء تدريجياً. تلك المحن التى لايعلم مداها إلا الله! ومما لاشك أن استمرارها سيقضى على حياته ومستقبله. ناهيك عن آل الكفر جميعهم!.. كل تلك الرؤى طافت بمخيلته ومن ثم أرسل فى طلب صديقه عبدالمعبود على جناح السرعة.

كان عبدالمعبود قد تسلم منذ أيام ترقيته ناظراً لإحدى المدارس القريبة من المدينة. ولما حضر هنّأه بها ولم يفته كذلك التهنئة بولده الجديد من

زوجه وابنة عمه.. روحية.. تلك التى تزوجها منذ مايقرب من العام.. أسفر اجتماعهما عن خطوات إيجابية، فقد استطاعا خلال سويعات قليلة عمل الكثير. خاصة فيما يتعلق بالتحضير لجلسة الصلح التاريخية. بغرض بحث كافة جوانب المشاكل بين العائلتين.

بعد صلاة العشاء، وفى موقع حيادى ارتضاه الجميع. اجتمع كذا مدعواً من طوائف وعائلات مختلفة، من داخل الكفر وخارجه. استمر الحوار الطويل، والنقاش الأطول حتى منتصف الليل أو يزيد. كاد بين لحظة وأخرى أن يُفلت الزمام من بين أيديهم. لكن إصرار بعض النفوس على الصلاح. ومن ثم الاصلاح، وصفاء طويتهم. مهد الطريق ثم فتحها إلى المبتغى رغم أنف أصحاب القلوب المظلمة.

بدأت صفحة جديدة. أخذ يخطها الطرفان دون اعتبار لصفحات مهترئة من الماضى. تقوم على التعاون والاحترام المتبادل بالفعل قبل القول. ليكن يقيناً لاينتظر زمناً يحققه القول قد يطول أو يقصر. وربما يضيع فى متاهاته وسراديبه، ثم عهداً يؤكده تدعيماً. حتى لايسير إلى النسيان الذى يدفنه ويهيل عليه الثرى.

لقد وفق الله إلى الصفاء المأمول، وقد خرجوا بما يشبه وثيقة بين الطرفين. إرتضاها الجميع اقتناعاً وامتثالاً.

كان من أهم بنودها التى حفظوها عن ظهر قلب:

* تكليف البعض منهم عمل دراسة وافية ومستفيضة لقطعة الأرض الفضاء محل النزاع، ثم بحث أفضل السبل لكيفية استغلالها كمشروع ناجح لصالح الكفر وأبنائه دون تفرقة.

* سرعة تقديم مذكرة موقعة من جميع رجالات الكفر إلى المجلس القروى الذى يتبعه لإبلاغها بدوره إلى الجهات المسئولة لإعطاء التصريح اللازم باستغلال الأرض للمشروع المزمع تقديمه.

* فتح باب التبرعات العينية والمالية أو غيرها للبدء فى جدية التنفيذ عقب الاستقرار على المشروع المقرر تنفيذه حال إقراره بالموافقة عليه من جهات الاختصاص.

كانت معظم القلوب مشرئبة، وكثير من النفوس مشوقة، وكل من تغلفهم تلك القلوب والنفوس يشدهم الحماس بقوة جذب مغناطيسية.

نابعة من عمق أفئدتهم لدرجة أن بعضهم كان يتسابق للإعلان عما سوف يتبرع به. تحقيقاً لما عقدوا العزم عليه، وكان من بين الأصوات التى علت آنذاك. الحاج بيومى الدواغرى الذى أراد أن يثبت وجوده قائلاً:

- ياجماعة.. ندر علىّ. عند أول البناء فى المشروع. يكون من طوب قمائنى. عشرة آلاف طوبة. كدفعة أولى فقد وهبتها للخير والاصلاح.

ثم وقف صلاح البعيضى ليؤكد المشاركة، وأنه ليس أحد أفضل من أحد إذ قال:

- والله العجل إللى ناوى اشتريه الأسبوع الجاى من سوق الثلاثاء التربية والعلف على حسابى. ولما يستوى ويصير تماما. لأهل الله عند البدء فى المشروع.

فقاطعه آخر من الدواغرية:

- حيلك.. حيلك شوية. تفتكر هوّه العجل ينتظر البدء فى المشروع. لسة بدرى قوى!

فعقب آخر يريد التهدئة واستكمال الفرحة:

- الأمل كبير فى الله ومؤكد والتفاؤل شئ عظيم. ولا إيه ياجماعة.

لكن المليونير المنتظر فاجأ الجميع. لما رفع عقيرته متحمساً ومطوحاً بيده فى الهواء وكأنه يؤكد جازماً بتنازله الفورى عن المليون من الجنيهات بمجرد وصول الإرث إليه، والذى لم يبق على استحقاقه غير العام والنصف بعد انقضاء نصف المدة المقررة حسب الوصية بذلك. كما لم ينس أن يشير إلى أحد الأعيان من عائلة الدواغرية.. طالباً منه إحضار القرطاس والقلم لأمر هام. مما جعل صهره نصحى ينفرج ثغره عن بسمة هى مزيج من الغيظ والحنق. نظراً للتسرع من ناحية، وضياع الثروة هكذا من ناحية أخرى. وقبل أن ينفض المجلس من جلسته تلك. كان ثمة صك بالتنازل عن المليون. موقعاً من السيد/ حلمى أبو الريش.. بغرض استكمال المشروع المتفق عليه.

* * * * * *

لما آوى حلمى أبوالريش إلى مخدعه المتواضع مؤقتاً. شعر أنه أسعد المخلوقات جميعاً وقد هدأت النفوس من ويلات المشاحنة والتناحر، ومن قسوة المكائد والمباغضة.

لكن الذى ملأه تيهاً لما تذكر لحظة التوقيع على المليون. إذ أحس أنه كسب الكثير، وجاءته الأمنيات كمطر منهمر. ليغمر أرض حياته الشرقاء. بعد أن امتد الوصل أكثر من ذى قبل بينه وعائلة الدواغرية. وتساوت الرؤوس فى الكثير. حتى فيما يتعلق بالمصاهرة، وقد نفّذ له نصحى معظم طلباته بخصوص ابنته ومستقبلها، وعربوناً للصفاء والمودة، وتأكيداً لحسن النوايا. من أجل ذلك فقد رأى حلمى أبوالريش أنه من المناسب جداً واللائق كذلك.. أن تصير ابنته نفيسة.. زوجةً له، ومن حسن الحظ أيضاً. أن يصير نصحى إلى نفيسة. ولما تذكر ما دار بالجلسة التاريخية بشأن المشروع وما اتفق عليه. كاد يطير فرحاً ونشوة، لأن المشروع سيحقق الأمنية التى طالما تمناها، وفى ذات الوقت سيطيح بغريمه حمدان.. أسفل سافلين..!

يالها من انتصارات هلّت وتجمعت لتريه طعم الحياة الحلوة ونكهتها الباسمة النشوانة. فالمشروع ينطوى على بناء مدرسة جديدة بالجهود الذاتية. على أن يلحق بها جناح صغير ذو قسمين. أحدهما مكتبة والآخر مقرّ لتحفيظ القرآن وتلاوته. ذلك قمة الانتصار عنده!

لم تمض غير شهور قليلة لاتتجاوز الثلاثة حتى أراد الله بالخير. لما أعلن المجلس القروى الموافقة المبدئية من قبل جهات الإختصاص على إنشاء المدرسة بالجهود الذاتية فى الموقع محل النزاع السابق.

بدأ التخطيط، ثم حفر الأساس بواسطة بعض أبناء القرية المتحمسين، وكأنهم بمعسكر ينشطون بداخله سعياً لإنجاز المهمة المنوطة بهم. كما تم تشكيل مجلس خاص لتنفيذ المشروع يتكون من خمسة أعضاء. اثنان منهم ينتمون إلى الدواغرية. والثالث من البعايضة، والآخران يمثلان بقية الفروع الأخرى بالكفر. كان يصحبهم بعض الشباب عند مرورهم على الدور ومقابلة أصحابها لجمع ما يتيسر من التبرعات حسب الإمكانات. وكان ثمة سجل خاص باسم كل متبرع ومقدار جهده المادى لدى أمين الصندوق من بين الخمسة السابق اختيارهم.. وهكذا بدأت أولى الخطوات بنجاح ملموس، ليصحو أبناء الكفر ورجالاتها ذات يوم على أكوام الرمل والزلط بالموقع، وشكائر الأسمنت التى رصت فوق بعضها وبكميات تقدر بالأطنان. ليسير العمل على قدمٍ وساق!

حتى عبدالمعبود ناظر المدرسة الابتدائية مسّته الحماسة ضمن الجميع. لذا يطالعك اسمه من بين صفحات سجل التبرعات وبمبلغ يدعوه للفخار. ألف جنيه.. «حتة واحدة». وخلال فترة زمنية وجيزة.

أخذت المبانى الأسمنتية المسلحة تأخذ طريقها نحو الظهور، والأعمدة الخرسانية بدأت تظهر مرتفعة وكأنها زرع ينمو كل يوم حتى يؤتى ثماره تحت رعاية الأمانى التى يحتضنها الجميع.

التقى المليونير المنتظر وعبدالمعبود ناظر المدرسة. تحدثا طويلاً وكانت المحاورة على أشدها بينهما، حتى انتصرت وجهة نظر المليونير. لما طلب قرضاً مؤجلاً مقداره عشرون ألفاً من الجنيهات. كى يظهر بما يتلاءم ومكانته المنتظرة أمام زوج ابنته ليلة عرسها التى اقترب موعدها حسب الاتفاق النهائى بينهما. هذا من جهة، ومن جهة أخرى. تساءل حيران وهو مكبوت النفس، مكسور القلب رغم ما ينتظره من ملايين، وذلك لاستثارة العطف والشفقة قائلاً:

- كيف يتسنى لك التبرع بالألف. بينما. أنا.. أنا من سيملك الملايين لا أجد البتة ما ينقذنى أمام الخلق من الهوان الذى أحسه هذه اللحظة، أو يبل ريقى ويحمينى ألم الإنكسار داخل النفس وأمام الغير! آه من ألم النفس ياعبدالمعبود. وقاك الله شرّه!

لقد استطاع بعد جهد أن يضغط بكل ما يملك من حجج أو براهين بما فيها وسائل الإغراء القصوى، حتى انتزع خمسة عشر ألفاً. هى كل ما بقى من رصيد الغربة التى قضاها عبدالمعبود معاراً بالخارج، فلم تمكنه الظروف التى أحاطته ونفسه التى غلبته عن الاستثمار، أو حتى شراء قطعة أرض مناسبة للبناء عليها كما يفعل غيره من أولئك القادمين من الغربة.!

صحب عبدالمعبود مليونيره المنتظر إلى البنك بالمدينة صباح اليوم التالى، ثم سلمه المبلغ بعد أن وقّع له على شيك بخمسين ألفاً مقبولة الدفع بعد سبعة شهور هى المدة الباقية من عمر الوصية المذكورة من قبل.. لم يكن يهم المليونير المنتظر سوى العيش فى المستوى اللائق بما يتناسب وما ينتظره من غنىً لا نظير لأمثاله بالكفر. من أجل ذلك زادت الديون عليه من كل فج. فهناك أول الدائنين. عبدالمعبود وخلفه طابور

طويل يتمثل فى الكثير - من بينهم: البدال، والجزار، والجمعية الزراعية الدائنة له.. حتى الحلاق بالكفر لم تفته فرصة اللحاق بالركب. وفوق كل ذلك صهره المبجل نصحى الدواغرى!

كان الوقت يمضى بطيئاً، والجميع يترقب مشغوفاً ذلك الموعد المنتظر والمأمول. لاشك أن الملايين الثلاثة ستنبسط فوق ربوع الكفر لتنعشه فى كل مناحى الحياة، فما بال الدائنين أصحاب الحق فيما ينتظرونه لما يحصلوا على حقوقهم كاملة. إنها قمة السعادة. وأى سعادة!!

كانت ليلة عرس نصحى رائعة بحق. تحاكى عنها الناس بما رأوه من مباهج، وما استمتعوا به من كرم فياض أسبغه عليهم ذلك المليونير. كانت الفرقة الموسيقية بصحبة القائمين على الأغانى والإنشاد، تبهر أناساً لم يروا قط تلك الروائع عياناً، وكان ثمة مغنٍ شعبى. رأوه رأى العيان أمامهم، ثم سمعوا انتماءه إلى الإذاعة أو ضمن المحسوبين عليها، فزادهم ذلك نشوة مغمورة فى عمق الزهو بما صاروا إليه وما ينتظرهم فيما بعد. كما ملأتهم النشوة كذلك أن الكفر صار يؤمه المعروفون أو المشهورون.

كانت المرطبات تدور على كافة المدعوين بلا استثناء، وكان ثمة جانب آخر معد لمن يود احتساء الشاى أو المشروبات الساخنة بجانب الجوزة التى أعدت لها المواقد. ناهيك عن عجل البقر ابن الأعوام الثلاثة لما بتر الجزار رقبته أمام دار العروس بعد صلاة العصر من ذلك اليوم وسط جمع غفير من الأطفال فى موجات من التهليل، وبعض النسوة اللائى يرقبن الحدث المفعم بالإمكانات وهن يزغردن فى حبور!

عقب ذلك فُتحت أبواب الدار لكل الواردين من المدعوين أو الفقراء وحتى عابرى السبيل.

كان المليونير يعيش أبهج ليالى عمره على الاطلاق، وكان يخيل إليه أن الدنيا جاءته أخيراً طائعة باسمة بعد أن ولّتْهُ ظهرها طيلة سنوات عمره المديد. لكنه كان راضياً على كل حال،وقد نسى كافة أيام المعاناة والشقاء. متمثلاً أمام عينيه مايحدث، ومحتضناً بفؤاده المعنى العميق الذى غاب عنه طوال حياته. «حقاً إن العمر لحظة» كما يقولون.. وهأنذا أعيشها الآن! وفى غمرة ذلك قام لتوه، ثم ضرب يده فى عمق جيب

الصدار وأخرج ربطة أوراق مالية، ثم ناولها أحد الأعيان من الحاضرين قائلاً له:

- ألفان من الجنيهات. خذها وأعطها أمين صندوق المشروع العظيم كمبلغ رمزى ومؤقت، حتى يأتيهم المليون المتفق عليه قريباً.

كبّر الحاضرون وهللّوا، وارتفعت الأصوات متداخلة وكأنها مملكة جديدة محاطة بكل أهازيج المرح والتفاؤل. بجانب الرؤى المختلفة لكل المعانى التى لايمكن حصرها أو تأويل كنهها ومبتغاها!!.

بعد انتهاء العرس بأيام قلائل. يبدو أن وعكة صحية شديدة ألمت بالمليونير المنتظر من جراء الليلة ذاتها، وما بذله خلالها من مجهودات أو ما أصابه أثناءها من فرح طاغ. كاد أن يشل حياته ومن ثم يوقفها. من أجل ذلك سارع نصحى إلى حميه ناصحاً إياه بالراحة التامة. ولم يلبث الزوار أن قدموا للإطمئنان مع الدعاء له بالشفاء العاجل، وهم يؤكدون المشاركة الوجدانية القائمة على المودة والحب ومن ثم التقارب.

كانوا يبثون المعلم نصحى خوفهم من المضاعفات التى قد تطرأ، حتى رأوه ذات مساء يصحب طبيباً جاء به خصيصاً من البندر، ولم ينس قبل إحضاره الطبيب أن يعرج على محامٍ معروف مستشيراً إياه فى كافة إجراءات الوراثة بعد الوفاة إن قدر اللهُ بذلك. وقد أوحى إليه المحامى بما يدعم الاطمئنان ويهدئ من روعه.

* * * * * *

فى صباح اليوم التالى. استدعى نصحى صديقه الحبيب عبدالمعبود طالباً منه سرعة التوجه إلى البندر لإحضار بعض الأدوية الضرورية استكمالاً للعلاج المطلوب حسب رغبة الطبيب الذى أوحى بصعوبة الحصول عليها بسبب نقصانها أحياناً بالسوق، وبالتالى فلا بأس من البحث بشتى الطرق حتى يأتى بها. وفى أثناء تجواله بالبندر. التقى وجهاً لوجه بزميل الغربة، وصديق الإعارة إلى السلطنة سابقاً. حاول أن يُطيل اللقاء به، لكن صديقه كان متعجلاً بعض الشئ، وكانت الصداقة القديمة آخذة فى الأفول طى الزمان الذى أوشك أن يسلم الهجر إلى بئر النسيان. منذ لقائهما السابق عند المقهى. قال عبدالمعبود:

- شاءت الصدف أن نلتقى ثانية!

- الصدف كثيراً ما تكون مفاجئة وغريبة فى مجملها.
- أبداً.. لا غريبة ولا حاجة أن ألتقى بك.
- المهم.. أخبارك إيه!
- الطريق المرسوم. أتذكره..! أوشك على الإنتهاء.
- أى طريق تقصد؟
- أنسيت ياصاحبى.. قصة المجلة، والمرحوم حماد فياض أبو الريش.. رجل الأعمال.. وصاحب الملايين..!!
- أيوه.. أيوه صحيح.. ماذا فعلت؟

صمت قليلاً كمن يفكر فى شئ، ثم انفرجت بسمة وهو يهز رأسه قائلاً:

- خطوة واحدة. ويتم كل شئ عند اللقاء القادم.. على فكرة.. أرجو أن تزورنى قريباً.. قريباً جداً. حتى تسمع مايسرك.

لم يعره الصديق انتباهاً، وكأنه الهائم فى دنيا التيه. أحس أنه طائف فى عالم آخر. فأعاد عليه القول:

- ألا تريد زيارتى! مالك.. أحسبك لاتمانع، وسأسعد بك كثيراً.
- هه.. أيوه.. ضرورى إن شاء الله.
- مابك؟! أراك قد تغيرت عن ذى قبل!
- أبداً. لكنها الظروف!
- أى ظروف تلك التى جعلتك أكبر من عمرك. هكذا..! ياصاحبى؟!
- علمها عند ربى.
- علّنى أستطيع المساعدة أو الوقوف بجانبك على الأقل!
- لاتقدر أن تمنع قدراً أراده الله -ياصاحبى- فالأولى رحمة الله بنا، ومن ثم اللطف من عنده، والطمع فى عفوه وكرمه اللذين يفيض بهما دائماً علينا. بدون أن ندرى. أليس كذلك؟
- لقد شغلتنى عليك، وبعثت كوامن الوجدان لدى!
- لاعليك..
- هل أعتبرها ضمن أسرار حياتك التى لاتبوح بها لأحد؟
- لا أريد أن أشجيك معى!
- بل قل ماشئت. والله معك.

- إنها ظروف ذات مواقف مؤلمة. يكُفيك أن تستمع لإحداها الآن. لأنه آخر ما حدث معي.. لقد بذلت غاية الجهد، ومكثت شهوراً فى عناء وشقاء حتى استطعت بناء البيت الجديد عقب العودة من الإعارة. صممته بما يتواءم والمتطلبات العصرية، لم أبخل بشئ كى أحقق الرفاهية أو الراحة النفسية التى أنشدها. تعمدت أن تكون جميع الغرف متسعة، والفناء كذلك مناسباً، وقد زينته ببعض الأشجار على هيئة حديقة خاصة. كان حلماً جميلاً حاولت تحقيقه. لن أطيل عليك. فقد فوجئت بحمل زوجتى بعد العودة من الإعارة بشهور قليلة.. رأيتها المفاجأة التى أقبلت رغم أنفينا، ولما جاءت لحظة الوضع. لم أحسب للطامة الكبرى حساباً، ولم يكن باستطاعتى منعها -رحمها الله- ماتت وهى تضع المولود الذى بقى حياً، ليذكرنى بها كل لحظة. خاصة لما أنظر إلى عينيه أو أستمع لصوته، وكلما جالت عيناى بأى مكان بالبيت تذكرت كل جهدها أثناء التشييد معى بدون أن تلحقها لحظة من الهناءة بالعيش فيه.

- كفى ياصاحبى. كان الله فى عونك. لا أحسبك إلا مؤمناً بقضاء الله وقدره.

عاد الصمت بينهما لحظات ثم قال صديقه وهو يهز رأسه مؤكداً:

- زهدت أشياء كثيرة فى الدنيا.

- لاتجعل مساحة التشاؤم تطغى على مساحة التفاؤل فى حياتك هكذا!

- إنها التجارب التى أوحت إلىّ بالزهد فى الحياة.

- إذن هل أعتبر أن تجاربى مازالت قاصرة؟

- وقاك الله غدر الدنيا إذا أتتك، وحفظك من شرورها إن جارت عليك.

- آمين.. وإياك..

لم يلبث أن ربت على كتفه، ثم قاما وشدّ على يده مطمئناً ومواسياً إذ قال:

- العنوان معك. ويشرفنى أن أراك فى أية لحظة إن شاء الله. أليس كذلك؟

ثم افترقا على أملٍ باللقاء القريب.

لم يزر الكرى أجفان عبدالمعبود، ولم يسترح معطياً للجسد حقه من الراحة. كان طول الليل يتقلب على جنبيه.

احتشدت اللحظات والذكريات وكافة المواقف السالفة، واختمرت بهواجس ذوات أحداس شتى، ثم طافت حول الرؤى المستقبلية، فانصهرت فى بوتقتها. كل ذلك كان بمثابة «كوكتيل» من الأفكار الممتزجة بالطموحات، وقد ظل كذلك حتى سمع الفجر يدعو الناس إلى الاستيقاظ والإسراع بالخير سعياً إلى الفوز بالصلاة: «الصلاة خير من النوم..».. أحس بثقل الجسد، ومعاناة الإرهاق، وتقرح العين، وتبلد الأحاسيس، وفتور الهمة، واشمئزاز النفس. فلم يتمالك أن يتغلب على تلك النوازع السقام. حتى سمع من يناديه فى الصباح المبكر من ذلك اليوم الموعود!. كان صاحب الصوت هو الصديق الحميم نصحى. وكان ذلك اليوم الموعود. يوم الذهاب إلى العنوان الذى سبق وسجلته المجلة سالفة الذكر بوضوح.. إنهما يعرفان الطريق جيداً. كانت ثمة سيارة معدة مسبقاً فى انتظارهما، وبداخلها جلس المليونير المنتظر الذى تحامل رغم مرضه، بعد أن جُهز له المتكأ مناسباً بالمقعد الخلفى، وسيكونان بجوار السائق كيفما اتفق.

إنها اللحظة الحاسمة التى ينتظرها الجميع. خاصة من تربطهم صلة مادية بالمليونير، وكذلك ما ينتظره أمين صندوق المجلس القائم على المشروع حين يتسلم مبلغ المليون المنتظر.. ياله من سخاء سوف يعود على مستقبل الكفر!.. سارت «البيجو» وكأنها تسير وسط موكب حافل على الجانبين. كانت العيون متطلعة، والأيادى ملوحة، والشفاه مبتسمة، والأصوات تتعالى وكأنها تهتف بالعودة الظافرة الميمونة.

ثمة بعض النسوة يتطلعن أمام أبواب الدور، أو من فوق الأسطح وبينهن اللاتى أخذهن الحماس فأطلقن الزغاريد المتفرقة هنا.. أو هناك وكأنها تقول: «مع السلامة وترجع لنا بألف سلامة..».

انتصف النهار ولم يأتهم الخبر الذى يستكملون به فرحتهم. خرج الناس من صلاة العصر، ومازالت الرؤية غائمة لاجديد يشبع نهمهم، ويبل ظمأهم. حتى أوشك النهار على الزوال، وعند الأصيل من نهار ذلك اليوم. لمح الصبية سيارة «البيجو» الصباحية.. «بشحمها ولحمها» وهى تقترب من الكفر. مثيرة خلفها أتربة الطريق المتعرج فى غير استواء.

حاولوا التجمع من جديد. متطلعين بعيونهم المشرئبة، وأفئدتهم المتلهفة. كانت «البيجو» تتهادى وهى تقترب من أحد دور الدواغرية. ولم تتجه صوب دار المليونير البعيضى. تلفت الناس إلى بعضهم بين مدهوش أو مستغرب. متأمل أو متسائل...!!

وكم إزدادت الدهشة أكثر عن ذى قبل. لما توقفت أمام دار نصحى الدواغرى ليهبط منها ثم يتجه إلى الداخل مباشرة بدون أن ينطق بكلمة، ومما زاد العجب والحيرة. انزلاقه بسرعة إلى الدار وهو مطاطئ الرأس بلا إلتفات أو تحدث مع الواقفين فى انتظاره منذ الصباح!

كثر الهمس واللمز، وخاض الناس فى كثير من التأويلات، وانطلق الخيال صانعاً الخوارق أو مؤكداً للمصائب. صارت الألسنة تضرب أخماساً بأسداس. طائفة حول هواجس شتى فيما تدعيه، وكأنها قصص تضاهى بمضامينها المستحدثة ما سبق لهم أن استمعوا إليه من سير الغابرين. ذوى الشعبية التى غاصت بعمق وجداناتهم عن سيف بن ذى يزن، وعنترة بن شداد، أو أبى زيد الهلالى وغيرهم...!

لم يكد يفيق الناس وهم يتجمعون زرافات ووحدانا. حتى هالهم ما رأوه للمرة الثانية، لما أقبلت سيارة زرقاء. توقفت أمام دار عبدالمعبود النمساوى ليهبط منها ثم يتجه من فوره صامتاً. مكفهر الوجه، وفى عجلة إلى داره بدون أن يُفلح أحد فى استنطاقه.. كثر اللغط أكثر من ذى قبل، وتعددت الأحاجى ومبرراتها التى يغلفها الضباب. فمن قائل:

- يبدو أنهم اختلفوا فيما بينهم، فأخذ كل نصيبه ثم عادوا فرادى هكذا!!

وقائل آخر:

- ياعم. دى.. «دى عنطزة وفشخرة» وكثرة فلوس. لما كل واحد يهل علينا لوحده وبسيارة مخصوص!

ثم ينطلق ثالث:

- المهم ياجماعة. نعرف إيه حصل.. يظهر أن الحكاية لاتُطمئن...!

فيتابع آخر:

- آل وإيه كل واحد. هس اسكت. لا كلمة ولايحزنون.

- والله دا شئ يحيّر بصحيح... أمال فين المليونير..!!

وهكذا استمر الحديث ولم ينقطع بين كل جماعة وأخرى وكأنهم فيالق باتوا حول موقعة حربية. ينتظرون حسمها، ومما زاد الموقف توهجاً واشتعالاً، وألهب دوافع حب الاستطلاع الكامنة بمهجهم الشائقة للمعرفة. ما رأوه رأى العيان. إذ جاءتهم سيارة وللمرة الثالثة. توقفت أمام بيت المليونير، ثم انفتح بابها ليهبط المليونير.. دون كلمة منه أو التفاتة كسابقيه. وهو متجه إلى داخل بيته متوكأ على عكازه الذى صار صديقاً حميماً يجنح إليه أينما ذهب..!

استدارت السيارة عائدة. شهق الخلق. كادت عيونهم أن تتحجر مما يرونه أمامهم كانت غالبيتهم تضرب كفاً بكف.. داخل محيط.. «كفر أبو كف». تساؤلاتهم حيرى، وعيونهم زائغة بين هذا وذاك وأولئك. ما الذى حدث ياترى!!؟ ولماذا؟ وكيف؟ وهل؟ ومَنْ... ...؟!! وكافة أدوات الاستفهام لم تسلم ذلك اليوم من أن توضع فوق الألسنة مجلجلةً بألمعيتها فوق الشفاه، ومنطلقة كقذائف متتالية بلا توقيت أو توقف!

فى شتاء الكفر الناعس، عقب صلاة العشاء، وبعد خفوت الأضواء أمام الدور أو الشوارع الضيقة. فى الحوارى أو الأزقة، وقد ملأ السكون تلك الأمكنة إلا من هرة تموء أو كلب ينبح أو ضفدع يصدر نقيقاً مسموعاً متقطعاً. أو هواء يلف المكان تصحبه ريح خافتة. فى تلك الليلة الرعناء. بات الناس قلقين، لم يغشهم النوم كما اعتادوا طوال حياتهم بالكفر. صادقهم السهد، وصارت أفكارهم تتقلب على مجمرة خوفهم من المستقبل، وما كانوا يؤملونه. خشية احتضانهم السراب المنزوى بين غياهب العتمة ولحظات الرجاء المنتظر..!

******

صحا الناس. كل يسعى إلى رزقه. وانطلق الرجل وهو يصرخ بصوتٍ جهورى مفزع:

- ياعالم.. ياهو.. قتيل.. قتيل!!

جرى من جرى، وتحلق البعض لرؤية المأساة الماثلة بنفوس متقززة، وكلمات مقتضبة أسيانة. حتى عرف الجميع صاحب الجثة، ودارت رحى التحقيقات حول كل من شملهم أدنى اتهام، أو صلة قربى، أو أية صداقة شخصية تؤكد أو توحى صلتها بالقتيل الذى عثر عليه مكوماً وسط بركة

من الماء والطين. بالقرب من أحد الحقول الملاصقة للكفر فى أحد أيام الشتاء الممطرة من شهر طوبة!

كانت ثمة رصاصة قد اخترقت الجهة اليمنى من صدره لتخرج من ظهره، بعد أن أحدثت تهتكات شديدة بالرئة اليمنى. أدت إلى الوفاة. مما حتم على المركز استدعاء أشخاص عديدين من «كفر أبوكف» حيث شملهم التحقيق الذى استغرق عدة أيام. كانت ثمة مجرد شكوك أو شبهة جنائية حول البعض. لكنها لاترقى إلى الاتهام المباشر إذ ينقصها الدليل الذى يدعمها ويضعها فى مرتبة اليقين. وكان ممن لفح وجوههم ضابط التحقيق بنظراته الكظيمة المرتابة، فحرك مكامن الخوف بأفئدتهم، وانتزع كل بوادر الهدوء والسكينة لديهم:

حلمى مسعد درويش، نصحى زكى الدواغرى، نفيسة حلمى مسعد، روحية عبدالباقى زوج القتيل. وآخرين ضمهم التحقيق.

ورغم كل العناء الذى لحق الضابط آنذاك. لم يستطع الفوز بما يضع الدليل بين يديه مؤكداً. كان كلما اقترب من خيط واه، وكأنه الحلم الذى يرجوه أن يتحقق، وقد يكون البداية إلى الطريق الصحيح. لايلبث أن ينقطع، فلم يهتد إلى الفاعل الحقيقى. خاصة لما حاصر كلا من حلمى مسعد، نصحى زكى.. أيقن حينئذ بصعوبة الدليل، ومن ثم الفاعل للجريمة..!!

******

ولما رُفعت القضية برمتها إلى النيابة. كانت أهم الأقوال التى سُجلت وقتذاك ضمن التحقيق على لسان المدعو: حلمى مسعد لما سئل:

– ماصلتك بالقتيل. عبدالمعبود النمساوى؟!

– صداقة قديمة ومصالح كانت متبادلة. يرحمه الله.

بابتسامة فاترة يشوبها التهكم:

– مصالح! أم الوهم الذى صنعتماه سوياً!

– يعلم الله. لم أصنع الوهم. كان مهيأ ومُعداً آنذاك.

– ألم تحاول قتله تحت تأثير الغيظ أو الانتقام، وربما تخلصاً من الديون القائمة عليك له؟!

– لا اتهام بلا دليل يؤكده. ولست أملك سلاحاً نارياً طوال حياتى،

وليست هناك شهادة إثبات تقتضى أو تحتم توجيه الاتهام.
- كيف تبيح لنفسك أن تحصل على أموال من هذا أو ذاك بغير وجه حق؟!
- لم أحصل عليها نهباً أو سرقة أو ماشابه ذلك. لكننى دُعيت إليها من قبل أصحاب المصلحة الذين استمرأوا ذلك. يحدوهم الهاجس بالحصول على أضعاف أضعافها لما أصير مليونيراً.
- ومن الذى أوحى إليهم بفكرة المليونير تلك؟!
- إنها الصدف التى يقولون عنها. أو قل المجلة الملعونة، حتى يكشف الله النوايا وما تطويه الصدور لاحتضان الدنيا بكل ما تزخر به من مغريات تقوم على المادة الملعونة أيضاً.
- كل شىء صار ملعوناً عندك فى هذه الدنيا!
- بصراحة. بعد الذى رأيت. لاتؤاخذنى إن قلت ذلك.
صمت لحظات وهو يهز رأسه. ثم واصل مستدركاً:
- فكم من كأسها شربت، وبنارها اكتويت، وعن حقيقتها عميت، وفى النهاية أيقنت حقيقة ضحكها وغدرها.
- ياه.. كأنك فيلسوف العصر الذى تحياه...!
- بل رجل أنهكه التعب، وسارت به السنون إلى أبعد مما يتوقع، ولم يعد من شئ ينتظره.
وخلال عدة أيام وقف أمام النيابة لتأخذ أقواله... ثانية.. لما ابتدره المحقق بقوله:
- كيف تدفقت عليك الأموال قبل أن تكون مليونيراً؟!
أجاب بإسهاب موضحاً دور الكثيرين تقديم كافة التسهيلات طمعاً فى الثروة المنتظرة.
انفرجت ابتسامة خافتة على وجه المحقق لما قال:
- إذن فقد نلت الثراء المؤقت بفعلهم الذى رسموه لك. بدءاً بالقتيل وانتهاءً بالاعتقاد الذى ساد آنذاك!
- لم أنل الثراء حقيقة. لكنهم ألقمونى الأحلام ودثرونى الآمال.
- ما الهزة التى حطمت أحلامك، وضيّعت آمالك!؟
- هه!

- أقصد. ما السبب وراء ضياع الأحلام وتحطيم الآمال؟!
- السهو أو التغافل. لما انغمسا فى بحر الرعونة والحظ السيئ.
- وضح كلامك أكثر!
- يابيه.. اسمى الحقيقى هو.. حلمى مسعد درويش.
- وما شأن الاسم بضياع الأحلام والآمال؟!
- لولا اللبس فى الاسم بالذات. ما حدث شئ!
- كيف؟!
- رجل الأعمال صاحب الملايين الذى مات، وترك وصيته. أقصد المرحوم.. حماد فياض أبوالريش. كانت وصيته باسم.. حلمى مسعد أبوالريش.
- إذن لست صاحب الاسم المقصود بالثروة. أليس كذلك؟!
- ذلك فى واقع الأمر. لكن الحقيقة اختلفت بعض الشئ!
- معنى هذا أن هناك اسمين يخُصانك. كيف وقع ذلك اللبس إذن؟ وضح أكثر!
- لما كنت طفلا نلهو ونلعب لعبة التخفى والبحث عمن يختفى. كان من يجده يحل محله وهكذا.. اختبأت يومها خلف كومة حطب، ولما أمسك بى صاحبى ونحن نلعب. اهتز الحطب فتناثر عش العصافير فوق رأسى. ومن يومها صرت معروفاً بأبى الريش. إنه اسم شهرة يابيه.. وليس اسماً أصيلاً بشهادة الميلاد.
هز المحقق رأسه مدركاً عمق اللبس إذ قال:
- نسى المرحوم. أقصد القتيل أن هناك اسماً للشهرة يخصك، وعلق الآمال بعد ذلك فيما صارت إليه الأحوال.
- تماما..
- لكن! كيف يسهو القتيل عن اسمك الحقيقى بهذا الشكل الغريب؟!
- ربما لم يعرف باسم الشهرة. أو نسى التقارب بين كلمتى: درويش وأبوالريش. من يدرى!
- وكيف فاتك طوال الفترة السابقة أن تفهم ذلك، أو تطّلع على المجلة التى ذكر بها اسم الشهرة؟!
- للأسف.. التحقيق المنشور بالمجلة إياها.. أوضح أن المليونير حماد

فـيـاض أرسـل أناسـاً إلى مـصـر لموافـاته بـالاسم المذكـور بالمجلة آنذاك. والتـأكد من تواجده حيـاً نظراً لكبر سن المقصود البحث عنه، فخمنت أن يكون هناك من أبناء الكفر من أعطى الاسم حسب الشهرة، مضافاً لذلك السن الذى ظننته موائماً لحالتى!

– ذلك يفسر حالة المفاجأة التى أصابتكم أنتم الثلاثة لما ذهبتم إلى العنوان المقـصـود. المنوط به اتمام إجـراءات تسلم الثـروة المذكـورة لمن يستحقها بناء على الوصية سالفة الذكر.

– نعم فقد اكتشفنا كل شئ!

– أظنها الصاعقة عليكم.. أنتم الثلاثة!

– بل الطامة الكبرى عليهما.

– ولماذا تستثنى نفسك من بينهما؟!

– لأننى لم أخسر شيئاً. بل ربما استفدت من ذلك.

– وماذا استفدت؟!

– الأحلام السعيدة التى عشتها مؤقتاً وقد خلتها حقيقة، والألسنة التى تملقتنى ولو رياءً، والتبجيل الذى لحقنى ولو ظاهرياً، والآمال التى تعلقت بها طيلة وقت أحسبه مكسباً لما حُسِبَ من عمرى فى ظلال النعمة التى أوشكت أن تأتى كالغيث... و..

لم يمهله أكثر من ذلك إذ قاطعه مشيراً له:

– كفى.. كفى..!

وفى النهاية لم يجد اتهاماً مباشراً، أو قرينة تدعو إليه، حتى غاب الدليل وسط غمامات الشتاء التى تظلل سماء الكفر، فاضطر إلى تسجيل القضية ضد مجهول..!

* * * * * *

عقب مصرع عبدالمعبود النمساوى، وما حدث من لغط وتساؤلات حيرى طوال فترة التحقيق، وحتى انتهائها إلى الطريق المسدود.. ضد مجهول!.. كانت ثمة تغيرات بدأت تطفو على السطح بفعل تغير النفوس وتبدل الأحوال. فقد لزم حلمى درويش داره، ولم يعد يخرج منها وهو يجتر الذكريات. هارباً من التهام العيون الشامتة أو سماع ما يخدش النذر المتبقى من كبريائه أو تجنباً لمطالب هذا أو ذاك من أصحاب الديون

التى غرقت فى أعماق بحور من الأوهام، فلم يحصدوا غير الهواء، ولم يحرثوا غير السراب!

جاءته الابنة الغضبى، وقد انقلب الزوج رأساً على عقب حيالها. بعد أن أهملها ولم يطق النظر إليها أو التحدث معها ولو بكلمة. قاطعها وكأنها شيئاً مهملا بالدار لا قيمة له على الاطلاق!

كانت تنظر إلى أبيها، وقد كست وجهها مسحة من الشجن الذى يغلفه الانكسار والقنوط لما قالت:

- كنت أتمنى أن أعيش بلا إهانة أو إهدار للكرامة.. كنت أود أن أكون تحت أمره بنفس راضية.. يوم أن يشعر بى ويعاملنى كإنسانة حتى أشعر بوجوده معى.

فبادرها وهو فى حالة تدعو للرثاء قائلاً:

- ما العمل يا ابنتى الآن؟ وماذا أملك أن أفعل؟ ألم يكن من الأجدر التحمل والصبر؟

بدموع تتقاطر، ونفس ملتاعة، وصوت مشجون أقرب إلى النشيج قالت:

- كست التكشيرة الدائمة وجهه يا أبى.. فصار تقطيب الجبين هو العلامة المسجلة فوق جبهته. غشيه الصمت الدائم الذى يعقبه الشخط والنطر لأتفه الأسباب. انها الصفات التى اكتسبها مجدداً.. أشياء كثيرة تغيرت يا أبى لا أملك أن أصرح بها.. وكفى ما عانيت.

ثم استسلمت للبكاء وقد تركت دموعها تزداد جرياناً.. كانت الدموع وكأنها لهيب يكوى كبده ويزلزل فؤاده. لكنه نظر إلى أعلى وبصوت داخلى لايسمعه غيره كان يناجي:

- يارب.. حكمتك يارب.

ثم استسلم لتساؤلاته المتأملة..:

- رفعتنى الدنيا يوماً، فرفعنى الخبيث فوق رأسه، وأحاطنى بالبسمة والتملق، ولما أهانتنى وهوت بى. كان أول من يسحقنى بعد أن خلع القناع الزائف!

ثم توجه إلى ابنته مواسياً بكلمات مستكينة:

- الصبر مفتاح الفرج إن شاء الله.

بينما كانت فتحية مبروك. زوج نصحى الأولى قد جاءتها الفرصة للتبكيت والشماتة، مما دفعها للتهليل والزغردة لما قالت بالفم المليان:

- أصل أنا نادراها.. أى والله.. داندر.. والندر لازم أوفيه.

كما تعمدت أن تنغص الحياة حول زوجها إذ غضبت كذلك. تاركة أطفالها الخمسة مع أبيهم بدون أحد يقوم على خدمتهم ورعايتهم. نكاية وانتقاماً لكرامتها التى أهدرها مسبقاً لما أتى لها بنفيسة وهى التى تفوقها صحة وجمالاً، ولم يقتصر فعلها على ذلك. لكنها أشاعت أن غضبتها لم تقم على خلاف كبير بينهما، لكنها تعود فى الأصل إلى الهجر الدائم من قبل زوجها. بعد أن أصبح غير قادر على إعطائها الحقوق الشرعية. كانت الإشاعات دائماً تسرى كالهشيم لكنها بعيدة عن متناول أصحابها!

ذهب نصحى الدواغرى إلى فتحية زوجه الأولى فى دار أبيها. محاولاً إعادة المياه إلى مجاريها بعد أن تركته، وقد أحس بالمعاناة. خاصة فيما يتعلق بمطالب أولاده التى لاتنتهى، ورعايتهم التى صار يئن من تحملها وحده.

تحدث مع أبيها، وحين استُدعيت صاحبة الشأن ابتدرها بقوله:

- لماذا فعلت ذلك يافتحية؟!

أجابت بفتور يشوبه الغيظ:

- اسأل نفسك!

نظر إليها فى حنق وامتعاض ثم قال:

- لم أعد نصحى الذى كان. وكنت تعرفينه كما تدعين! ثم أولادك. ما ذنبهم فيما حدث؟

قالت فى غير اكتراث:

- إنك لست فى حاجة إلى غيرهم. لهم الله. طالما ظلمتنى..

قال مؤكداً:

- جئت الآن من أجلك -تعلمين ذلك- علك تهتدين إلى الصواب.

قالت فى عناد:

- مصالحك الشخصية -دائماً- فوق كل اعتبار، وماعداها لايهمك.. أليس كذلك!

قال فى صوت خفيض وكأنه يتوسل:
- كل إنسان معرض للخطأ.. و.. و «خير الخطائين.. التوابون».
قالت معاتبة وكأنها تُذكِّره:
- خطؤك أهان كرامتى، وأنساك العشرة التى كانت.. كما محا كل شئ كان قائماً فيما بيننا.
رد فى عتاب ودود:
- لاداعى لكل هذه القسوة.. يافتحية.. كنت أنتظر الصفح والعفو عما سلف!
ردت بجرأة يشوبها الغيظ:
- وهل نسيت قسوتك يوم تزوجت دون اعتبار للروابط التى كانت تربطنا معاً!!
قال فى محاولة لاستمالتها واقناعها:
- قلت إنها غلطة العمر.
ردت بسرعة:
- وهل مكتوب علىّ أن أتحمل أخطاءك؟ أم ماذا؟!
خاطبها متأففاً:
- ما معنى هذا؟
أجابت فى إصرار:
- أنت تعرف المعنى الذى أريده. الإنفصال لا غيره.
- مازلت أقول: وأولادك!!
- لاتنس أنك السبب فيما حدث أو سيحدث.
- سوف تتعبين، وتتعبيننى معك. فكرى وتريثى يابنت الناس قبل فوات الأوان، وحتى لايندم كلانا.
صمتت ولم ترد.. قال مستدركاً:
- سيكون الحصاد مّراً، ولن يجنيه غير أولادنا.
استيقظت فجأة من صمتها ثم قالت:
- وهل فكرت فيما تقوله الآن. يوم أقدمت على زيجتك الثانية من نفيسة؟
- كفاك من التأنيب والعتاب فلا فائدة منهما الآن. كل ما يهمنى أن

تعلمى جيداً أن الحياة علمتنى كثيراً.

ثم أخذ ينحى باللائمة على أشياء كثيرة. مبدياً اشمئزازه من مجرد سماع اسم زوجه الثانية. عاقداً العزم على الخلاص منها بالطلاق المؤكد خلال أيام ثلاثة لاتزيد. بمجرد أن يذهب إلى البندر، ليوكل أمر ذلك إلى محام يعرفه جيداً. وسيأتى لها بورقة الطلاق أمام عينيها لتقرأها بنفسها، وساعتئذ ينتهى كل شئ. وتعود الحياة كما كانت نشوانة بينهما من جديد، وكل ما مضى سيطويه الزمن حتماً. ليصير حُلماً لن تصحو بعده على غير الحقيقة التى يؤكدها بثقة ويقين. يوم ترجع إليه.

سَمعَتْ كل ما قيل. أحست بصدى نبراته الصادقة فلم تشأ أن تغلق الباب نَهائياً حين قالت:

– على كل حال سأنتظر ثلاثة أيام.. ليست كثيرة.

توقفت لحظات، ثم استدركت:

– وما مصير البيت الذى شيدته باسمها، ونصف الفدان الذى آل إليها بموجب العقد الذى تسرعت بإبرامه وصار فى حوزة أبيها الآن؟!

– قلت لك إننى سأطلقها وأسترد كل شئ.

– هل تضمن عدم مقاضاتها لك. للتشبث بما تريد انتزاعه منها؟

– لا تخشى شيئاً، فالطلاق سيكون عنصراً هاماً، وسأتدبر كل شئ فى حينه، حتى يرجع كل شئ مثلما كان.. المهم أن تكونى مطمئنة للغاية.

لم يلبث أن ودعها على أمل فى اللقاء القريب والعاجل، بعد أن يُصلح كل شئ كما وعد بذلك.. لم يمض غير يوم واحد على ذلك اللقاء، وفى صبيحة اليوم الثانى قبل الضحى بقليل. سمع الناس بالكفر نداءً يدعوهم إلى حضور صلاة الظهر على جنازة المرحومة نفيسة حلمى التى وافتها المنية إثر أزمة قلبية بعد معاناة نفسية شديدة!.. كان بعض نفرٍ من أهل الكفر يسيرون خلف الجنازة وهم فى طريقهم إلى مثواها الأخير، وبعد أن وُسِّدت اللحد وفى أثناء العودة. كان الجمع قد تفرق. ثمة أحد العائدين يتحدث إلى صاحبه قائلا فى تأثر وتأمل بالغيْن:

– لقد ورثها أبوها بطريق التعصيب فى نصف ما سجله الزوج لها حيث لايوجد فرع وارث مذكراً أو مؤنثاً. من أجل ذلك سيؤول نصف

التركة من زوجها إليه بعد أن انفرد بها.. دنيا غريبة وعجيبة. لايفهمها أحد، ولايملكها أحد... سبحان الله العظيم. ولا حول ولاقوة إلا بالله!!

لم تمض على وفاة نفيسة سوى عدة أسابيع، وقبل الأربعين بيومين. سمع حلمى درويش قرعاً متواصلاً. توكأ على عكازه ليفتح للطارق وخلال دقائق صار أمام نصحى الذى دفعه إلى الداخل فى غيظ فألقى به على الأرض. كان يرغى ويزبد بعبارات ملؤها التهديد والوعيد. طالباً إعطاءه مفتاح البيت المغلق منذ وفاة نفيسة ليبيعه ويتخلص من كل ما يذكره بها، كما طلب التنازل فوراً عن حيازة نصف الفدان. لترجع إليه كل مستحقاته.

تحامل حلمى درويش. وقف مبهوتاً. لم يستطع أن يتفوه بكلمة. مدّ نصحى يده بإشارات متتابعة يريد المفتاح ولن يمهله غير يومين لاستخلاص الأرض كذلك. لم ينتظر إضاعة الوقت أو إلتقاط الأنفاس وسماع الرأى الآخر. لكنه أخذ يعيث بالبيت فساداً. حطم كل ما صادفه وهو يبحث عن المفتاح. نكش كل المتعلقات الخاصة والشخصية. قلب الفرش رأساً على عقب. حتى الحصير لم تسلم من رعونته. باحثاً تحتها عما يريد!.. كان عكاز حلمى درويش يهتز بيده المرتعشة. وبنهاية العكاز قطعة حديد حماية له من التآكل عند استناده بالأرض.. أحس وكأن الدنيا تميد به. ثار البركان بداخله فغلى الدم بعروفه. تاهت معالم الرؤية والروية لديه. غاص بعمق التيه الجارف. فَقَدَ كل الأحاسيس وضاعت كل تجارب السنين حينما فقد القدرة على الاتزان ومن ثم التوازن. بين ذاته وتلك المواقف الضبابية الطارئة المباغتة. بفعل الغضب الجامح الذى ألم به. لما أصابته مهانة الكلمات التى سمعها فى مقتل منذ وعى الحياة بعد ذلك العمر الطويل. لقد رأى كيانه يتهاوى ويتمزق نتفاً تذروها رياح السموم السليطة على مسامعه وأمام عينيه، كما تداس كرامته بأقدام «العنجهية» القاسية والجبروت الأرعن من منطلق القوة التى بدأها نصحى وحتى انتهى بمقولته:

– حرام أن تعيش بعد يومين. إن لم أتسلم البيت والأرض. اعتبره انذاراً أخيراً.. كلامى واضح لا رجعة أو نقاش.. أفهمت..؟

لم يكد نصحى يستدير خارجاً. حتى عاجله حلمى درويش بعدة

ضربات سريعة وقوية بمؤخرة عكازه ذى القطعة الحديدية فوق رأسه. كانت الضربات مفاجئة. بدون وعى وغير متوقعة. سقط على أثرها نصحى وقد تفجرت الدماء غزيرة كنافورة لايوقفها شئ. تركه حلمى فى حالته تلك. ثم أسرع فاتحاً الباب على مصراعيه. وخرج مهللاً فى بسمة بلهاء.. وهو يقول فى رعونة وعصبية:

- عندى القتيل ياولاد.

ثم يضحك فى هيسترية مردداً بعض الكلمات:

- من غير ميعاد.. قتيل يااولاد.

ثم أخذ يكرر ذلك. كان يفرد يديه فى الهواء وكأنه يصارع شيئاً مهماً. كما كان يأتى بحركات وهمهمات غريبة.. ثم أسرع يطوف الكفر حافى القدمين حاسر الرأس. كان الناس ينظرون إليه مدهوشين ولايسعهم إلا القول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ماذا جرى للرجل؟!!

تحلق حوله بعض الصبية وهم يرددون:

- العبيط أهه.. «أهه.. أهه.. أهه».

كانوا يطاردونه ويسيرون خلفه، ولم يلبثوا أن أخذوا يقذفونه بالحصى والطوب. حاول الهروب وهو يرفع يديه فى محاولات لاتقائه أخطار ما يقذفونه عليه. حتى جاء عم عبد البديع ليخلصه من بينهم لما تناول يده وسار به عائداً إلى داره، وقبل أن يصل سمع صراخاً.

كانت إحدى النسوة قد شاهدت نصحى النسماوى وقد برز برأسه أمام عتبة بيت حلمى.. بينما نصفه الآخر مازال بالداخل وقد تهشمت رأسه وبرز منها شئ أبيض اللون. يبدو أنه بعض أجزاء من مخه..! تجمع الناس من كل حدب وصوب. وأقبل نفرٌ من عائلة الدواغرية وهم يحملون العصى والشوم فى غضبة ملؤها الانتقام. بادر حمدان أبواسماعيل مستنفراً:

- لاغيره الملعون.. حلمى.. هو الذى فعلها. لابد من قتله..!

سارعت إحدى النسوة مشيرة إلى عبدالبديع بسرعة إخفاء حلمى. قبل أن تصل إليه الأيدى. خاصة بعد اقتحامهم الدار وإشعالهم النار بها.. لكن عبدالبديع لم يملك شيئاً حيال حلمى الذى انفلت من بين يديه وهو يقول:

- هيه.. هيه.. أيوه أنا جاى.. أيوه نفيسة.. نصحى جاى.

ثم انطلق يعدو وسط زحام الأطفال وبعض النسوة، ولم يلبث أن توارى وكأنه ملح أذابه بحر من ماء الحياة.

كان الناس يتهامسون فيما بينهم:

- هكذا الدنيا لاتبقى أحد على حال.. والله دا كان مفترى فى البيع والشراء.. عاش يجمع المال من كل طريق وبأية وسيلة وآدى النهاية.. مات مقتولا.. شوفوا عاش إزاى.. ومات إزاى.. ياجماعة! لاتجوز عليه غير الرحمة..!!

همس أحد الخبثاء:

- «من قتل يُقتل ولو بعد حين..!»

رد آخر على الفور:

- تقصد إيه!

نظر ناحيته فى توجس:

- ياعم.. ولا حاجة.. ربك أعلم بكل شئ.

بادره متحدياً:

- أيوه كده.. انسحب.. إياك والظنون!

- انت حاتعملها قضية ولا إيه! الناس كلها تعرف!

- ماذا تعرف الناس يافالح؟!

- تعرف ما تعرفه وأعرفه...!

- ولماذا لم تتكلم من يومها؟!

- قبل أن تسألنى عن ذلك.. اسأل نفسك أولا!

قام أحد الحاضرين محاولاً تهدئة الموقف وإنهاء الحديث برمته حين قال:

- خلاص كفاية.. انتهى كل شئ، وكل واحد يأخذ نصيبه من الدنيا حسب النوايا وفوق كل ذلك إرادة الله سبحانه وتعالى.

- فعلاً الكفر عمره ماعاش مثل تلك المشاكل التى جاءت بالكوارث على أصحابها!

انتهى الأمر بالقبض على حلمى درويش. رغم إصابته باللوثة العقلية التى جعلته يهذى بكل معانى الجنون المطبق.. كان يجلس أمام المحقق على الأرض فى وضع القرفصاء واضعاً ساقاً فوق الأخرى ثم يهزها هزاً خفيفاً وهو يضحك

مستعرضاً بعض الحركات البهلوانية رغم طعنه فى السن، وكأنه يحارب طواحين الهواء أو وسط ميدان حربى. ممسكاً بالعصا وكأنها سيف بتار يطيح به رقاب الأعداء، وبعد أن يهدأ قليلاً. يقوم بمحاكاة أصوات بعض الطيور أو الحيوانات. خاصة ما يتعلق بصوت الكلب فى عوائه، أو القط فى موائه!

أيقن المحققون فى مصرع نصحى النمساوى أن القاتل صار مخبولاً لا محالة. خاصة بعد تقدير قواه العقلية التى آلت به إلى مستشفى الأمراض العقلية. ليظل بها تحت الملاحظة وعلى ذمة القضية.

وهكذا.. ظل حلمى.. قابعاً بالمستشفى. لايعرف أحد عنه شيئاً، ولايدرى أحد كيف يعيش هناك، وما مصيره المنتظر آنذاك..!!

لكن الذى أخذ يردده أبناء الكفر بعد ذلك. أن أحدهم ذهب إلى المستشفى من منطلق القرابة، ثم الوفاء وحب الاستطلاع ليسأل عنه ويطمئن عليه فلم يجده، ولم يجد أثراً له. ولما سأل متقصياً. أخبروه أنهم فوجئوا بهروبه ضمن الذين هربوا وقتئذ. ومن قائل له:

- إنه عاد إلى السجن ليقضى به بقّية العمر. بل سمع من أوحى بموته بالمستشفى..!

وذات صباح. فاجأ صالح المواردى وهو القائم على دفن الموتى بالقبور بعض المقربين لديه إذ أخبرهم أنه رأى حلمى فى المنام يلبس ثوباً أخضر، وعمامة خضراء ثم يشير إلى مكان بعينه قائلا له:

- هذا قبرى ياصالح..!

ثم أقسم لهم أنه رأى ذلك أكثر من مرة.. فرد أحدهم على الفور:

- وما مقصده من ذلك!!

أجابهم صالح المواردى من منطلق الثقة والادراك اللذين يود تأكيدهما:

- إنه واضح وضوح الشمس. يريد أن نبنى له مقاماً فى البقعة التى حدّدها.. مارأيكم؟!

نظر بعضهم إلى بعض، ثم نظر إليهم فى انتظار إجاباتهم.. لكنهم أخذوا يتهامسون، ولم يلبثوا أن طلبوا مهلة يسيرة حتى يقرروا ماذا هم فاعلون، ومايرونه مناسباً فيما جاءهم به عم صالح المواردى؟!

انطلق أحد الحاضرين، وكأنه اكتشف سراً غامضاً إذ قال:

- والله.. يستحق ياعم صالح.

فقال آخر مستفسراً:

- كيف؟!

فأجابه فى ثقة وهو يؤكد مايقول:

- لقد جعل حياة المحيطين به عُريانةً..!!

فعقّب عم صالح الماردى وهو يهز رأسه هزاً خفيفاً:

- وذهب كل منهم -فى النهاية- إلى حيث أراد الله.

تفرّس أحد الجالسين فيمن حوله وقال فى تأكيد:

- لعن الله عُبّاد المال ومن يسعون إليه بشراهة تجعلهم يسحقون كل شئ من أجل امتلاكه وتنميته باستمرار وبأية طريقة أحياناً!

أجاب معظم الحاضرين مؤيدين صاحبهم:

- لعنهم الله فى كل زمان ومكان.

قال عم صالح:

- علينا أن نحرس أنفسنا من الدنيا حتى لاتضحك علينا.

لم تمض بضعة أيام قلائل.. هنالك.. وتحت شجر الجميز العتيقة. وقف عم شادوف أبو محروس.. يتأمل رجلاً هرماً.. هدّه الشيب والنحول.. لايستر حسده غير ثوب بال خشن.. بينما طالت لحيته بشكل مخيف.. اقترب منه فى توجس وهو يتفرس وجهه.. راعه الاكتشاف.. إنه هو بعينه.. عم حلمى أبوالريش.. حاول إيقاظه.. هزّهُ هزاً خفيفاً.. حركَ ذراعه.. قَلَبَهُ على جنبه الأيسر حتى اكتشف موته.. صرخ بأعلى صوته.. أسرع إليه نفرٌ غير قليل.. تحلقوا الساجى تحت الشجرة، وبعد آذان الظهر.. كانوا يسيرون به إلى المسجد للصلاة عليه، وهو الذى نقلوه إلى أقرب بيت لغسله وكفنه -قبل ذلك- كان معظم أبناء القرية يسيرون خلفه، بينما أكتاف الرجال تتسابق إلى حمله إلى المقابر القريبة من القرية، وصار ضريحه وسط المقابر -بعد ذلك- معروفاً للجميع، وكان معظم الذين يمرون أمامه أو بالقرب منه.. لاينسون قراءة الفاتحة والترحم على روحه.. بينما كبار السن وحدهم يروون عنه قصصاً.. «حبّشوها» ونمقوها بأساطير وأعاجيب يلذ لكل مستمع أن يعيش فى رحاب الخيال الممتد حولها..!!

(انتهت)

صدر للمؤلف:

١ - طيور بلا عيون «رواية»
٢ - عودة الحياة «مجموعة قصصية»
٣ - قلوب مصرية و.. «رواية»
٤ - نفق الشيطان «رواية»

تحت الطبع

١ - انتحار الشياطين «رواية»
٢ - صنع الله.. «ثلاث مسرحيات.. ذات الفصل الواحد»
٣ - النزوة «رواية»

الطبعة الأولى
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

الناشـــر

دار النيـــــــــل

للنشر والطبع والتوزيع
١٢ شارع عبده بدران
م الباشا - المنيل - القاهرة
ت : ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٣/٩٣٥٤
الترقيم الدولى
٩٧٧/٥٤١٤/٤٤